بسم الله الرحمن الرحيم

أخبار الراضي بالله

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: قد فرغنا -ولله الحمد- من ذكر أخبار القاهر والأحداث في أيامه، ونحن نذكر الآن بيعة الراضي بالله وما كان من أمره والأحداث في أيامه إن شاء الله.

ولما خلع القاهر في يوم الأربعاء لستٍّ خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة- أخرج الحجرية والساجية محمد بن المقتدر بالله، ويكنى أبا العباس، وأمه أم ولد يقال: لها ظلوم، في هذا اليوم على ثلاث ساعات من النهار، وكان في الخلافة هو وأخوه هارون على سبيل توكل بهما من القاهر، فأجلسوه على السرير، وبايعوه بالخلافة مختارين له، مجتمعين عليه من غير أن يواطئهم على ذلك، ولا كانت بيعتهم مراسلة فيه إلا ما كان يعلمه من كراهيتهم لأمر القاهر، وأنهم في وحيه عليه[1].

وتولى التدبير في ذلك رجلٌ من الساجية يعرف بسيما المناخلي، إلى أن تم، فأجلس محمد بن المقتدر على السرير، وجلس القاهر بالله في بيت بقربهم، وأمر الراضي بالتوكل به والاحتياط عليه، ولم يعشْ المناخلي بعد هذا إلا أقل من مائة يوم.

وكنتُ في هذا اليوم قد أخذت دواءً لحاجة إليه، وشيء وجدته، وعلم بذلك الأمير أبو العباس قبل أن يتسمى بالراضي بالله، فجاءني رسوله يأمرني أن أوجه إليه بالأسماء التي يُنعت بها الخلفاء، وتكون أوصافًا لهم، وإني لأعجب من إطباق الناس على تسميتها ألقابًا، فيقولون: لُقب بكذا، وهذا

---

(١) في الأصل: (في وحيه عليه) ولعل الصواب: في وجبة عليه.

عندي خطأ كبير، وزلل عظيم؛ لأن الألقاب مكروهة، ومنهي عنها في كتاب الله جل وعلا، وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله جل وعز {ولا تنابزوا بالألقاب}[1].

فوجهت إليه برقعة فيها ثلاثون اسمًا ليختار منها ما يريد، وأشرت عليه في رقعتي أن يختار منها المرتضي بالله، ولم أشك في اختياره له، وابتدأت من وقتي، فعملت أبياتًا ضادية قافيتها المرتضي، على أني أنشده إياها وهي:

أَثْبَتَ الرَّحْمنُ بالسَّعْدِ المُضِي ... دَوْلَةً قَائِمَةً لاَ تَنْقَضِي

لأَبِي العَبَّاسِ عَفْوًا سَاقَها ... قَدَرُ اللهِ الإِمَامِ المُرْتَضِي

دَوْلَةٌ يَأْمُلُهَا كُلُّ الْوَرَى ... مَا لَهَا إِنْ ذُكِرَتْ مِنْ مُبْغِضِ

كَانَ وَجْهُ المُلْكِ مُسْوَدًّا فَقَدْ ... قَابَلَ اللَّحْظَ بِوَجْهٍ أَبْيَضِ

يَا أَمِينَ اللهِ يَا مَنْ جُودُهُ ... إِنْ كَبَا دَهْرِي بِحَظِّي مُنْهِضِي

غَلَبُ الْوَجْدِ وفِقْدَانُ الرِّضَا ... وكَلَا جِسْمِي بِهَمٍّ مُمْرِضِ[2]

كَانَ حَظِّي بِكَ نَحْوِي مُقْبِلًا ... فَانْثَنَى عَنْهُ بِوَجْهٍ مُعْرِضِ

أَقْرَضَ الدَّهْرُ شَبَابِي شَيْبَةً ... لَمْ أَكُنْ أَطْلُبُهَا مِنْ مُقْرِضِ

لَيْسَ لِلشُّهْبِ إِذَا مَا جَارَتِ الـ ... ـدُهْمَ فِي سَبْقِ الْهَوَى مِنْ رَائِضِ[3]

---

(١) كتب هامش الأصل ما صورته: الألقاب لا كراهة في جميعها، وإنما الكراهة فيما تضمن سوءًا منها، قالوا: اللقب ما أشعر بمدح أو ذمٍّ، فالمكروه إنما هو الثاني.

(٢) الغلب والغلبة: القهر.

(٣) في الأصل من تراض وهو تصحيف.

أَسِفَتْ نَفْسِي عَلَى قُرْبِي الَّذي ... كَانَ مِنْ يَوْمِ اخْتِفَالِي مُغْرِضِي[1]

لَكَ عَبْدٌ مَسَّهُ بَعْدَكَ مَا ... وَكَّلَ الْجِسْمَ بِدَاءٍ مُحْرِضِ[2]

قُضِيَ الْبُعْدُ عَلَيْهِ كَارِهًا ... لاَ يَرُدُّ النَّاسُ أَمْرًا قَدْ قُضِي

كُلَّ يَوْمٍ يَنْتَضِي سَيْفَ أَذًى ... بِالنَّكَايِيبِ عَلَيْكُمْ مُنْتَضِي

مَا يُبَالِي إِذْ رَأَى فِيكَ الْمُنَى ... غَضِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ أَمْ رَضِي

وهذه الأبيات لم تُهَنَّ بها المدة، ولا راضها الفكر، وإنما قيلت مقتضية، فليست بالمختارة، وإن صفرت من العيب، ولولا أن الحاجة دعت إلى ذكرها ما ذكرتها، وسيمر -بعون الله- من جيد الشعر في أوقاته ما يعفي عليها إن شاء الله.

فلما فرغتُ منها جاءني رسوله برقعة منه يقول فيها:

قد كنت عرفتني أن إبراهيم بن المهدي لما بويع أيام الفتنة بالخلافة أراد أن يكون له ولي عهد، فأحضروا منصور بن المهدي، وسموه المرتضي، وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيري ولم يتم له أمره، وقد اخترت الراضي بالله، فكنت أشكر الله على ما وفقه له ووهبه فيه، فمضى اسمه على ذلك، وما زال الناس يبايعونه بقية يومهم.

ووجه من وقته فاستحضر أبا الحسن علي بن عيسى، ومعه أخوه أبو علي عبد الرحمن بن عيسى- بالنظر في الأمور، وأراده للوزارة، فاحتج بكبر

---

(١) الغرض: الهدف يرمى بالسهام.

(٢) في الأصل: محوض، ظاهر أن الأصح محرض، ومعناه المسقم المضني.

وضعف، وأقرها[١] إلى أخيه بذلك، وأن يكون الاسم والخلعة له، ويتولى هو النظر في أمر الملك وتدبير الناس وجباية الأموال على كره منه لذلك وتغلب، لما رأى من تعذر مال البيعة، إلا أنه كتب بالبيعة إلى النواحي، ونظر في المهم الذي يوجبه الوقت، ومعه أخوه معرفًا له ما يعمل، ومستأذنا له فيه، إلى أن وافت رقعه أبي علي بن مقلة إلى سيما المناخلي، يتضمن له أنه يحتال في وقته خمسمائة ألف دينار يصرفها في الرجال للبيعة ويتضمن له إن أتم ذلك خمسمائة ألف دينار لنفسه.

وكان المتولي لإيصال الرقعة إلى المناخلي كاتب له حدث، يعرف بعلي بن جعفر، وضمن له ألفي دينار معجلة وأضعافها مؤجلة، فصار المناخلي بالرقعة بضمان الخمسمائة ألف دينار[٢] إلى الراضي بالله، فلما وقف عليها أحضر علي بن عيسى وأقرأه إياها، فقال له: أمير المؤمنين -في هذا الوقت- محتاج إلى زكاة هذا المال، وما عندي وجه لبعضه! والصواب: إن صح هذا المدل أن يمضي أمر هذا الرجل ويستكتبه وانصرف، فجلس في منزله، فكان الراضي بعد ذلك يقول: لم يتحصل لنا من الخمسمائة ألف دينار درهم، وأخذ من أموالنا وأموال الناس مثلها، واختير أبو علي محمد بن علي للوزارة يوم السبت لتسع خلون من جمادى الأولى وخلع عليه وركب الناس معه إلى داره ولقيني ابن عمرو الكاتب -كاتب للراضي قبل الخلافة، وكان أخص الناس به، فقال لي: إن أمير المؤمنين قد أمرني بإعطائك عشرة آلاف درهم لتسميته وما عندي دراهم، فلا تلح عليَّ ودعني أدفعها إليك في مرات، قلت: فعجل منها ما ترى، فأعطاني

---

(١) هذه الكلمة غير واضحة والأصل يحتمل ما ذكرنا.

(٢) في الأصل: الخمسمائة الألف الدينار.

ثلاثة آلاف[١] درهم، ووفانيها بعد شهرين.

وبلغ الراضي بالله أن هارون بن غريب -خال المقتدر بالله- مقبل إلى بغداذ فكرِهَ ذلك وما كان بصافي النية له؛ لأن الراضي بالله كان في حجر مؤنس المظفر، وكان العباس بن المقتدر في حجر الخال، ثم في حجر ابنه هارون بعده، فكان يتهمه بإثاره عليه، ولأنه كان أيضًا منحرفًا عن جدته شغب أيام حياة أبيه، ثم رأيت من ذكره لها في خلافته وتحننه عليها ما كنت أسمع ضده منه في أيام إمارته، وكذلك عاد منه كل تشعيث كان قديمًا نفث به في أبيه مدحًا وتقريظًا ووصف محاسن، وإني لأذكر يومًا في إمارته -وهو يقرأ عليَّ شيئًا من شعر بشار وبين يديه كتب لغة وكتب أخبار- إذ جاء خدم من خدم جدته السيدة، فأخذوا جميع ما بين يديه من الكتب، فجعلوه في منديل دبيقي كان معهم، وما كلمونا بشيء، ومضوا فرأيته قد وجم لذلك، واغتاظ فسكنت منه، وقلت له: ليس ينبغي أن ينكر الأمير[٢] هذا، فإنه يقال لهم: إن الأمير ينظر في كتب لا ينبغي أن ينظر في مثلها، فأحبوا أن يمتحنوا ذلك، وقد سرني هذا ليروا كل جميل حسن، ومضت ساعات أو نحو ذلك، ثم ردوا الكتب بحالها.

فقال لهم الراضي: (قولوا لمن أمركم بهذا: قد رأيتم هذه الكتب، وإنما هي حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء، ومن كمله الله بالنظر في مثلها وينفعه بها، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد والسنور[٣] والفأر).

وخفت أن يؤدي الخادم قوله، فيقال: من كان عنده فيذكرني، فيلحقني

---

(١) في الأصل: ثلاثة ألف درهم.
(٢) في الأصل: أن ينكر للأمير هذا.
(٣) في الأصل: شنديار والسفور.

من ذلك ما أكره، إلى ما لي عندهم مما سأذكره، والسبب فيه في موضعه من أخباره إن شاء الله، فقمت إلى الخدم فسألتهم: ألا يعيدوا قوله، فقالوا: والله ما نحفظه فكيف نعيده؟!

فكتب الراضي بيده إلى هارون بن الخال أن يقيم بمكانه، ولا يتجاوز ذلك إلى ناحية الحضرة، ويعده أنه يأذن له في القدوم عليه في الوقت الذي يراه صلاحًا، فكتب جوابًا عن هذا الكتاب بأنه جاء محتاطًا مشفقًا من أشياء قد بلغته وأقلقته، وأقبل حتى نزل النهروان فاشتد ذلك على محمد بن ياقوت، وكان قد حجبه وملك على الوزير محمد بن علي، فندب الراضي الناس للخروج مع ابن ياقوت لمحاربته من غير أن يرى ابن الخال أنه يحب قتاله، وإنما أحب تأخيره مديدة استيطارًا[1] منه لأنه لم يدرِ كيف تئول الأمور، فلقيه ابن ياقوت بنهر يتن بقرب النهروان فقتله واحتز رأسه، فجيء به إلى الراضي، فأظهر سرورًا بذلك، وسلمه إلى أهله فدفن بقرب قبر أبيه في قصر عيسى بن علي في الكرخ في الجانب الغربي.

وخلع في يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة على محمد بن ياقوت لقتله ابن الخال، وطوق وسور وخلع في يوم الخميس بعد ذلك بيومين على الوزير محمد بن علي لمعاونته على ذلك.

وكان قتل هارون بن غريب في يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة وإلى هذا الوقت، فما ذكر الراضي [أحدا][2] من الجلساء ولا جلس ولا كان يشرب النبيذ ولا يوافقه، وكنت أحسن تركه، وكان في إمارته ربما اشتهى أن يصل مجالسه، ويبر من يحضره ويشرب اليسير منه، فيتأذى بذلك، وما زال

---

(١) هي من الطيرة وهي ما يتشاءم من الفأل.

(٢) ما بين المربعين زيادة اقتضاها السياق.

ذكيًّا فطنًا لقنًا لما يسمع بحضرة ما يريده من غير فكر، فدعا يومًا أخاه هارون، وكانا نفسًا واحدة في جسمين في أيام أبيهما؛ مكتبهما واحد وأمرهما واحد، يقدم طباخوه الطعام لهما شهرًا ثم يقدمه في الشهر الآخر طباخو أخيه هارون، وكان في حجر نصر الحاجب وكان بره به أكثر من بر الباقين للأمراء الذين في حجورهم، فدعا يومًا أخاه هارون إلى الثريا فشرب هارون وأحب أن يساعده، فدخل في النبيذ إلى أن غيره وكان يقرأ على شعر أبي نواس في تلك الأيام، فأنشدت معرضًا به بيتا لأبي ذؤيب:

وَأَتَتْنِي صَرِيعَ الخَمْرِ يَومًا فَرُعْتُهَا ... بِقُرْآنٍ إِنَّ الخَمْرَ شَغْبٌ صِحَابُهَا

ففطن لما أردت فقال: لمَ أقرأتني بالأمس قول أبي نواس:

فَمَا العَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرَانِيَ صَاحِيًا ... وَمَا العُمْرُ إِلَّا أَنْ يُتَعْتِعَنِي السُّكْرُ

ثم قطع وانصرف، فلما فرغ قلبه من أمر ابن الخال وجه إلي من هاهنا ممن جالس الخلفاء وممن يصلح أن يجالسني، فوجهت إليه: إنه لم يبقَ ممن جالس الخلفاء غير إسحاق بن المعتمد، وهاهنا من رسم بالمجالسة وما جالس بعد مثل محمد بن عبد الله بن حمدون ومثل ابن المنجم، فقال: قد عزمت على الجلوس، وتقدم بإحضار الجماعة وأمر أن يكون فيهم أحمد بن محمد المعروف بالعروضي واليزيديان: إسحاق وعلي ابنا إبراهيم، وكانا يعلمان الجماعة الخط، وكان العروضي مرسومًا بتأديب أبي إسحاق المتقي بالله أمير المؤمنين وأخيه على رسمه بذلك، والمعروف بابن غالب، وكانت رياسة التأديب إليه؛ لأن الزجاج النحوي كان ندب لتأديب المقتدر بالله، فاستخلفه فغلب على الأمر وحظي به دون الزجاج، ووهب له وأقطع لما ولي المقتدر ما أغناه وكفاه. فرسم العروضي بهذين، ورسم أبا عبد الله محمد بن العباس اليزيدي بتأديب الراضي وأخيه هارون ورسم لتأديب العباس بن المقتدر رجلا آخر يعرف بابن غدانة العماني.

ثم إن علي بن المقتدر توفي فكان العروضي يصير إلى الراضي وأخيه هارون فيكرمانه، وتوفي اليزيدي وابن غالب قبل خلافة الراضي بالله فلم يكن يُجلس إليهما غيره، وغير علي بن إبراهيم اليزيدي على نوبة وملازمة.

ورسم لتأديب عبد الواحد بن المقتدر المعروف بابن الأنباري النحوي، فأمر الراضي أن يحضر الجماعة الدار في مستهل رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ليجالسوه، وأحضرنا، وأمر بأن يكون ترتيب جلوسنا على ما أنا أذكره رسم أن يكون على يمينه أقربنا إليه إسحاق بن المعتمد، ثم أكون أنا تاليًا له، ثم يكون العروضي تاليًا لي، ثم يكون ابن حمدون تاليًا له، ثم يجلس الباقون عن يسرته على ترتيب ربما اختلف فكنا في المجلس في أول جلسة جلسها أربعة عن يمينه كما ذكرت، وخمسة عن يساره وهم يوسف وأحمد ابنا يحيى بن المنجم وعلي بن هارون بن علي بن يحيى واليزيديان إسحاق وعلي ابنا إبراهيم، وكان قد أمرني أن أعمل أبياتي الضادية على قافية المرتضي قصيدة ضادية غيرها على قافية الراضي فعملتها، فلما وصلنا إليه في ذلك اليوم أنشده أحمد بن يحيى وعلي بن هارون قصيدتين يهنيانه فيها بالخلافة ويصفان سرورهما لاغتباطهما، فاستمعهما وأظهر استحسانهما، ثم أمر بإنشاد الضادية فأنشدته إياها، وأنا أذكرها هاهنا؛ لأنها ليست من الشعر الذي يأباه القلب ويمجه السمع، وفيها مدح لابن ياقوت وللوزير وهي:

أَصْبَحَ المُلْكُ عَالِيًا بِأَبِي العَبْـ ... ـبَاسِ أَعْلَى المُلُوكِ بَعْدَ انْخِفَاضِ

واسْتَفَاضَ السُّرُورُ فِي سَائِرِ النَّا ... سِ بِمُلْكِ المُهَذَّبِ الفَيَّاضِ

رَضِيَ اللهُ هَدْيَهُ فَاصْطَفَاهُ ... فَهُوَ بِاللهِ وَالمَقَادِيرِ رَاضِي

مَنْ غَذَتْهُ العُلُومُ يَرْتَعُ مِنْهَا ... فِي جِنَانٍ أَنِيقَةٍ وَرِيَاضِ

كَمُلَ الفَضْلُ وَالفَضَائِلُ فِيهِ ... قَبْلَ عِشْرِينَ مِنْ سِنِيهِ مَوَاضِي

فَهُوَ بِالْعِلْمِ والتَّفَرُّغِ فِيهِ ... خَبِيرٌ آتٍ مِنَ الْمُلُوكِ وَمَاضِي

خَطَرَتْ نَحْوَهُ الخِلافَةُ طَوْعًا ... بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْوَرَى وَتَرَاضِ

واصْطِفَاقٍ مِنَ الأَكُفِّ دِرَاكًا ... واجْتِمَاعٍ مُوفٍ وَعَزْمٍ مُفَاضِ[1]

مَرِضَ الدِّينُ قَبْلَهُ وَأَتَاهُ ... بَارِئًا عِنْدَهُ مِنَ الأَمْرَاضِ

واسْتَلَذَّ الزَّمَانُ إِذْ أَسْفَرَ الْمُلْـ ... ـكُ وَجَلَّى سَوَادَهُ بِبَيَاضِ

وَاجِدٌ بِالْعُلُومِ وجْدَ مُحِبٍّ ... رَاعَهُ مَنْ يُحِبُّ بِالإِعْرَاضِ

يَرِدُ النَّاسُ مِنْهُ أَغْدَارَ جُودٍ ... طَيِّبِ الْوِرْدِ مُتْرَعِ الأَحْوَاضِ

حَمِدُوا مِنْ مُحَمَّدٍ حُسْنَ مُلْكٍ ... بِتَقَضِّي حَقِّ الْوَرَى وَتَقَاضِي[2]

نِعَمٌ لِلْوَلِيِّ مِنْهُ حِبَاهُ ... وَمَنَايَا عَلَى الْعَدُوِّ مَوَاضِي

تَمْلِكُ الْخُطْبَ مِنْهُ عَزْمَةُ رَأْيٍ ... يُذْعِنُ الصَّعْبُ عِنْدَهَا لِارْتِيَاضِ

يَا إِمَامًا إِلَيْهِ حُلَّتْ عُرَى الْفَخْـ ... ـرِ وَفُلَّتْ مَعَاقِدُ الأَغْرَاضِ

حَازَ بِالْمَكْرُمَاتِ كَامِلَ مَجْدٍ ... عَلِقَ النَّاسُ فِيهِ بِالأَبْعَاضِ

وَتَعَالَى عَلَى النُّجُومِ بِبَيْتٍ ... سَامِقِ الْعِزِّ ظَاهِرِ الأَعْرَاضِ

حُجَّةُ اللهِ أَنْتَ يَا قِبْلَةَ الدِيـ ... ـنِ فَلَيْسَتْ تُرَدُّ بِالإِدْحَاضِ

آذَنَ السَّيْفُ مَنْ عَصَاكَ مِنَ النَّا ... سِ بِمُلْكٍ وَاشٍ وَانْتِقَاضِ

وَبِنُقْلٍ مِنَ الْعَذَابِ وَوِزْرٍ ... يَنْقُضُ الظَّهْرَ أَيَّمَا إِنْقَاضِ

---

(١) في الأصل: واجتماع (موفو عزم) ويظهر أن الزيادة التي وسمت بعد الفاء هي واو عزم

(٢) في الأصل: بتغضي... وتغاضى بالغين المعجمة.

لَسْتُ مِمَّنْ يُرِيدُ بِالْمَدْحِ حَالاً ... يَبْسُطُ الْجَاهَ مِنْهُ بَعْدَ انْقِبَاضِ

قَدْ تَرَوَّيْتُ مِنْ نَوَالِ إِمَامٍ ... لَسْتُ مَا عِشْتُ فِيهِ بِالْمُغْتَاضِ

بِشْرُهُ زَائِدُ الْعَطَاءِ كَمَا الْبَرْ ... قُ دَلِيلُ الْغُيُوثِ بِالإِيمَاضِ

وَتَقَدَّمْتُ فِي مَدِيحِي لَهُ النَّا ... سَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَوِي الإِبْغَاضِ

وافْتَرَعْتُ الأَبْكَارَ مِنْ عِزَّةِ الشِّعْـ ... ـرِ فَذَلَّلْتُ صَعْبَهَا بِافْتِضَاضِ

وَغَذَانِي بِطَوْلٍ مِنْهُ فِي سَا ... بِقِ أَيَّامِيَ الطِّوَالِ الْعِرَاضِ

جَاءَ عَفْوًا بِلاَ سُؤَالٍ وَلاَ وَعْـ ... ـدٍ وَلاَ مُذْكِرٍ بِهِ مُتَقَاضِي

صَافِيًا مِنْ تَكَدُّرِ الْمَطْلِ يَجْرِي ... جَرْيَ مَاءٍ صَافٍ عَلَى رَضْرَاضِ

وَتَشَرَّفْتُ بِالْجُلُوسِ لَدَيْهِ ... بِحَدِيثٍ يَلْتَذُّهُ مُسْتَفَاضِ

وَبَلَغْتُ الْمُنَى وَبَشَّرَنِي النَّا ... سُ بِثَوْبٍ مِنَ الْغِنَى فَضْفَاضِ

وَتَبَذَّلْتُ بِالتَّذَلُّلِ عِزًّا ... آذَنَ الْهَمُّ عِنْدَهُ بِانْفِضَاضِ[1]

وَاطْمَأَنَّ الْفِرَاشُ مِنْ بَعْدِ أَنْ جَا ... نَبَ جَنْبِي تَجَنُّبَ النُّهَّاضِ

وَاسْتَرَدَّ الْعَدُوُّ وُكْدِي وَعَادَتْ ... أَعْيُنُ السُّخْطِ وَهِيَ عَنِّيَ رَوَاضِي[2]

لاَ أَرَى مُزْعَجًا نَوَالِي وَإِنْ أَبْـ ... ـطَأَ عَنِّي جَنَاهُ بِالإِيغَاضِ

لاَ وَلاَ خَاطِبًا بِذَمِّ زَمَانٍ ... أَتَشَكَّى مِنْهُ نُدُوبَ عِضَاضِ[3]

قَدْ كَفَانِي الإِمَامُ مَا قَدْ عَنَانِي ... وانْتَضَانِي مِنْ خَلَّةِ الإِنْقَاضِ

---

(١) جانب من الأضداد.

(٢) الوكد بالضم السعي والجهد.

(٣) الندوب جمع ندبة بفتح النون وهي الأثر الباقي على الجلد من جرح أو غيره.

واجْتَنَيْتُ الْغِنَى بِمَدْحِيَ غَضًّا ... مِنْ أَيَادٍ لَهُ رِطَابٍ غِضَاضِ
لَمْ أَجُبْ نَحْوَهُ الْفَلاَةَ وَلاَ أَقْـ ... ـبَلْتُ نِقْضًا أَهْوِي عَلَى أَنْقَاضِ[1]
تَتَرَامَى بِيَ الْمَفَاقِرُ طَوْرًا ... واعْتِرَاضًا كَرَمْيَةِ الْمِعْرَاضِ[2]
بَعْدَ أَنْ حَلَّتِ النُّحُوسُ مَحَلِّي ... وَهَوَى نَجْمُ أَسْعُدِي لانْقِضَاضِ
فَتَكَ الْيَأْسُ بِي فَأَهْدَى صُدُودًا ... مِنْ وَصُولٍ كَفَتْكَةِ الْبَرَّاضِ[3]
وَأَرَانِي تَحَيُّفُ الْهَجْرِ لِلطَّيْـ ... ـرِ بِمَا نَيَّ تَحَيُّفَ الْمِقْرَاضِ[4]
واقْتَضَانِي دَيْنَ الشَّبَابِ مَشِيبٌ ... فِيهِ عَسْفٌ لَهُ وقُبْحُ تَقَاضِي
عَجَبِي لَهُ كَيْفَ أَوْجَبَ ذَنْبًا ... لَمْ يَكُنْ عَنْ تَسَلُّفٍ واقْتِرَاضِ
ظَالِمٌ مُنْصِفٌ سَرِيعٌ بَطِيءٌ ... سَابِقٌ رَكْضُهُ بِغَيْرِ ارْتِكَاضِ
فَتَسَوَّدْتُ بِالْبَيَاضِ عُذْ ... تُ بِهِ عَنْ وِصَالِ بِيضٍ بِضَاضِ
وَاكْتَسَيْتُ الْوَقَارَ بِالْكُرْهِ مِنِّي ... وَنَضَتْ بِشْرَتِي لَيَالٍ نَوَاضِي
وأَتَتْنِي قَوَارِضٌ مِنْ أُنَاسٍ ... مِثْلُ وَقْعِ الشِّهَابِ فِي الأَغْرَاضِ
كُلُّ وَاهِي الْقُوَى نَؤُومٍ إِذَا مَا ... نَهَضَ النَّاسُ لِلْعُلَى رَبَّاضِ
تَرَكَتْنِي لِمَا أُحَاذِرُ مِنْهَا ... حَرَضًا هَالِكًا مِنَ الأَحْرَاضِ

---

(١) النقض: المهزول من السير، والأنقاض النوق أو الجمال المهزولة.
(٢) المفاقر: الحاجات، والمعراض سهم بلا ريش دقيق الطرفين غليظ الوسط، يصيب بعرضه دون حدّه.
(٣) البراض بن قيس الكناني أحد فتاك العرب المشهورين وبسببه نشبت حرب الفجار بين قومه بني كنانة وبين قيس عيلان، وفي الأصل كفيئة.
(٤) في الأصل: وأراني كخيف.

عَلِمَ اللهُ مَا الَّذي كُنْتُ أَلْقَى ... فيكُمُ مِنْ تَأَلُّمٍ وَامْتِعَاضِ
لَمْ أَذُقْ مُذْ رَكِبْتُ رَاحِلَةَ الخَو ... فِ إِلَى الآنَ لَذَّةَ الإِغْمَاضِ
لاَ أُطِيقُ الدِّفَاعَ عَنْكَ وَلاَ أَمـ ... ـلِكُ غَيْرَ الهُمُومِ والإِرْتِمَاضِ
زَأَرَتْنِي أُسُودُ حِقْدٍ عَلَيْكُمْ ... لَمْ تُغَيَّبْ بِغَابَةٍ وَغِيَاضِ
وَفَرَانِي الزَّمَانُ مِنْهُ بِنَابٍ ... بَعْدَكُمْ مُرْهَفِ الشَّبَا عَضَّاضِ
وَانْتَحَى آكِلًا لِلَحْمِي وَرَضَّ الـ ... ـعَظْمِ مِنِّي بِكَلْكَلٍ رَضَّاضِ
واكْتَحَلْتُ السُّهَادَ والحُذَرَ الدا ... ئِمَ خَوْفًا بِمَرْوَدٍ مَضَّاضِ
مِنْ حَسُودٍ مُنَافِسٍ لِي عَلَيْكُمْ ... لِبِحَارِ اغْتِيَابِكُمْ خَوَّاضِ
مُبْغِضٍ لِي لِمَا أُسَيِّرُ فِيكُمْ ... مِنْ مَدِيحٍ عَلَى الأَذَى حَضَّاضِ
فَأَرَانِي الإِلَهُ مَا كُنْتُ أَرْجُو ... هُ وعُوِّضْتُ أَحْسَنَ الاعْتِيَاضِ
يَا إِمَامَ الهُدَى اسْتَمِعْ لِوَلِيٍّ ... سَائِرٍ فِي مَدِيحِكُمْ رَكَّاضِ
بَذْلُ النَّفْسِ وَاجِبٌ لَكَ مَحْضَ الـ ... ـنُّصْحِ مِنْ أُسْرَةٍ لَكُمْ أَمْحَاضِ
كُلُّ عَاصٍ بِجِلْدَتِهِ العُرُّ ... فَهُمُ هَانِئُوهُ بِالخَضْخَاضِ
يَفْضُلُ النَّاسَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْبَأْ ... سِ كَفَضْلِ الدَّيْسِ لابْنِ مَحَاضِ
قِبْلَةُ الحَرْبِ حِينَ تُجْتَنَبُ الحَرْ ... بُ وَتَرْدَى خُيولُهَا فِي الْعِرَاضِ
عَضَّدَ المُلْكَ فِيهِ بِالأَيْدِ العَا ... لِمِ شَافِي المَحَلِّ بِالإِحْمَاضِ
بَاذِلُ الرَّأْيِ سَالِكٌ شَعْبَ عَزْمٍ ... مَا المَصَاعِيبُ فِيهِ كالأَحْفَاضِ
أَخْصَبَتْ أَرْبُعُ الوَرَى بِإِمَامٍ ... قَاتِلِ المَحْلِ جَابِرِ المُنْهَاضِ
عَرَفَ النَّاسُ فَضْلَهُ مِثْلَ مَا يُعْـ ... ـرَفُ قَصْدُ السِّهَامِ بِالإِنْبَاضِ

مَـــنْ رأى حُبَّـــهُ كَنَافِلَـــةِ الْفَـــرْ ... ضِ فَـــإِنِّي أَرَاهُ كِـــالإِفْتِرَاضِ

أَيَّـــدَ اللهُ مُلْكَـــهُ بِـــوَزِيرٍ ... مُـــسْتَقِلٍّ بِرَأْيِـــهِ نَهَّـــاضِ

عَـــالِمٍ بِالزَّمَـــانِ قَـــدْ رَاضَ مِنْـــهُ ... جَامِحًـــا آبِيًـــا عَـــلَى الـــرُّوَّاضِ

لَمْ يَطُـــفْ بِـــالْيَقِينِ مِـــنْ ظَنِّـــهِ الشَّكَّ ... وَلاَ حَـــالَ دُونَـــهُ بِـــاعْتِرَاضِ

ضَرَبٌ فِي هُـــدَى وَلِيِّـــكَ مَـــاضٍ ... وَسُـــهَادٌ عَـــلَى عَـــدُوِّكَ قَـــاضِي

نَاصِـــحٌ لَمْ يَخُـــضْ ضَحَاضِـــحَ غِـــشٍّ ... فِي الزَّمَـــانِ الْمَـــاضِي مَـــعَ الْخُـــوَّاضِ

مَـــوَّلَ اللهُ بَيْـــتَ مَالِـــكَ مِنْـــهُ ... بِـــاجْتِمَاعٍ مِنْـــهُ لاَ بِانْفِـــضَاضِ

غَـــيْرَ مَـــا حَافِـــلٍ إِذَا انْتَحَـــلَ النُّـــصْـ ... ـــحَ بِـــشَكْوَى مُغَاضِـــبٍ أَوْ مُـــرَاضِي

مِـــنْ أُنَـــاسٍ أَقَلاَمُهُـــمْ أَسْـــهُمُ الْمُلْـــ ... ـــكِ وَلَكِنَّهَـــا بِغَـــيْرِ وِفَـــاضِ

جَامِعَـــاتٍ لِلأَمْـــرِ بَعْـــدَ افْـــتِرَاقٍ ... جَـــابِرَاتٍ لِلْعَظْـــمِ بَعْـــدَ انْهِيَـــاضِ[1]

مَـــا رَأَتْ سَـــاعِيًا عَـــلَى الْبَـــيْنِ إِلا ... قَيَّـــدَتْ سَـــعْيَهُ بِغَـــيْرِ الإِيَـــاضِ

نَفَثَـــتْ بِالْمِـــدَادِ سُـــمًّا عَلَيْـــهِ ... نَفْـــثَ أَنْيَـــابِ حَيَّـــةٍ نَـــضْنَاضِ

فَـــابْقَ يَـــا سَـــيِّدَ الْمُلُـــوكِ لَـــهُ نُبْـــ ... ـــرِمُ بِـــالرَّأْيِ مِنْـــهُ كُـــلَّ انْتِقَـــاضِ

وَتَمَـــلَّ النَّـــيْرُوزَ تِـــسْعِينَ عَامًـــا ... سَـــامِيًا وَالْعَـــدُوُّ ذُو إِغْـــضَاضِ

فقال لي -وكان عالمًا بالشعر ناقدًا-: ما أعرف مثل هذه الضادية لقديم ولا محدث، وإنها لَحُمَتُكَ رميت بها كما كانت- قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإِلهُ فَجُبِرَ... حمة العجاج رمى بها.

---

(١) في الأصل: للظلم ولا معنى لها.

فقلت له: يبقي الله سيدنا، وهاهنا حماة مثلها كثيرة.

وكان من أول ما خاطبنا به أن قال: والله لقد جاءني هذا الأمر وما شرعت فيه ولا أحببته، ولا علم الله ذاك مني في سر ولا علانية، لا جهلا مني ما فيه من الشرف والجلالة[١]؛ لكني لتغير الأحوال وقلة الأموال وكلب الجند وخاب الدنيا، وإنه يستصحبني من الغم والأسف والغيظ والاهتمام أكثر مما يؤمل من السرور واللذة، فما أجد في زماني مياسير من الكُتَّاب والتجار يجمل بمثلهم الملك، ويلجأ المهم إليهم مثل ابن الجصاص في التجار ومن يقاربه، وأرجو أن يعينني الله بجميل نيتي فقد ضقت ذرعا بما دفعت إليه فقلت له: إذن يعينك[٢] الله يا أمير المؤمنين، ويوفقك بشهادة من رسول الله صلى الله عليه بذلك ووعد به، قال: وكيف ذاك؟ قلت:

حدثنا إبراهيم بن عبد الله النميري، قال: حدثنا حجاج بن منهال، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن بن أبي الحسن، عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه: ((يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)).

فقال لي: قد والله سرَّني الله بهذا الحديث، ولست أشك الآن في عون الله لي وتوفيقه إياي، ثم قطع المجلس قطعة ما لقيه من إعنات القاهر له، وخوفه لقتله أباه في ليله ونهاره، وما دفع إليه من مداراة من لا تعرف طريقته ولا يُوثق بدينه ولا بعقله، ولا تؤمن بوائقه، ولا تُرضى خلائقه، إلى أن قال: أليس بابن المعتضد وأخ المقتدر وعم لنا؟! هذا والله عار لا يرحض وعيب لا يزال، ثم نبهتنا سهامه.

---

(١) في الأصل: تقرأ بالوجهين، الخلافة والجلالة.
(٢) في الأصل: يغنيك ويظهر أنه تحريف.

فقلت: قد أزال الله عن سيدنا كل عيب وألحق به كل حسن، وله في رسول الله صلى الله عليه أسوة حسنة، هذا عمه أبو لهب أنزل الله عز وجل فيه وفي امرأته سورة من القرآن يعرفها كل إنسان ويلفظ بها كل لسان، فما ألحقه عاره، وقد ولده جد رسول الله عبد المطلب. وهذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه كان يهجوه قبل إسلامه ثم أسلم وشهد حنينا مع رسول الله صلى الله عليه، وحسن أثره وما زال محمودًا مرضيًا إلى أن توفي، ويقول له حسان بن ثابت وكان كافرا:

أَبُــوكَ أَبٌ حُــرٌّ وَأُمُّــكَ حــرَّةٌ ... وَقَــدْ يَلِــدُ الحُــرَّانِ غَيْرَنَجِيــبِ

فَــلَا يَعْجَــبَنَّ النَّــاسُ مِنْــكَ وَمِــنْهُمَا ... فَــمَا خَبَــثٌ مِــنْ فِــضَّةٍ بِعَجِيــبِ[1]

فقال لي: قد والله سرني جميع ما جرى، وأراني طريق المسلاة، وأعتقني من همٍّ كان قد ملكني وغلب عليَّ، أعلمت أن الناس يظنون أن هذا من قول حسان، إنما هو لأبي سفيان صخر بن حرب، وأنا قد كنت أظن ذلك حتى عرفتنيه فقلت له: إن حسان هجاه بقصيدة فيها بيت يقال: إنه ما سمع بهجاء قط أنصف منه، وهو قوله:

هَجَــوتَ مُحَمَّــدًا فَأَجَبــتُ عَنــهُ ... وَعِنــــدَ اللهِ فِي ذاكَ الجَــــزاءُ

أَتَهجُــوهُ وَلَــستَ لَــهُ بِكُــفءٍ ... فَــشَرُّكُما لِخَــيرِكُما الفِــداءُ[2]

هذا أنصف بيت قيل قط من هجاء.

قال الصولي: وما حكيت من ألفاظه التي مرت، وما أحكيه من كلامه بعد

---

(١) في الأصل من فصه.

(٢) الرواية المشهورة بكفء.

فهو كما أحكيه أو شبهه أو مقارب، إذ كنت لا أقدر على أن أحفظ لفظه على حروفه وأنا أحفظ معناه.

وكان والله إذا جمع نفسه وأحضر خاطره كأنه ينطق بلسان المنصور إذا أراد الكلام في معنى من المعاني، كذلك خيل إلي أو المأمون من بلاغته وحسن سلوكه سبل المعاني وما أخطأه من شيء فلن يخطئه أن يكون أحسن الناس علما بالشعر ونقدا له كما ينقده العلماء به وإنه من أطبع ملوك بني العباس في الشعر وأكثرهم شعرا وأكرمهم عشرة لجلسائه، وما رأيت ولا سمعت بخليفة أحسن منه أخلاقا ولا أسمح بكل شيء بالمال والطعام، حتى يفرط وبالثياب والطيب، ما بخل بشيء قط ولا تعاظمه شيء يهبه، ولولا إتباعه لشهوته كثيرًا عالما بما في ذلك من العيب محتملا له على بصيرة لظننت أنه لا يقدم أحد عليه.

فكنا بين يديه في ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل نشرب وكان هو لا يشرب قد ترك النبيذ جملة، ثم انصرفنا وكان النوروز في تلك الأيام فجلس في بركة مرصصة الجوانب والمجاري حسنة قد عملها وأحضرنا فجلسنا حول البركة وملئت ماء وأمر فرمى فيها بمثقلات كافور كبار وصغار ثم قال لنا: كل من وقف بين يديه مثقلة فهي له، فوقفت بين يدي بعضنا مثقلة وقدام بعضنا مثقلتان، أنا منهم، وقفت لي صغيرة وكبيرة باعهما لي ابن خزابة بثلاثة آلاف[1] درهم، ودفع إلينا ندا كثيرًا وعنبرًا ووصل الجماعة بصلات مختلفة على أقدارهم عنده، ثم واصل الجلوس بعد ذلك إلى أن كثر شغب الحجرية والساجية في طلب المال، فقطع الجلوس معنا مدة لئلا يقولوا إنه مشغول بلذاته، ولما قبض على القاهر حبس في بيت وطولب بأموال فلم يقر بشيء وكأنه عرف ما له عند الراضي لسوء ما كان يعامله به، فعذب عذابا شديدا فما

---

(١) في الأصل بثلاثة ألف.

أنعم بشيء فأمر بعض الناس فكحله فأعماه وتردد[1] المكروه عليه فما أقر بشيء ووجد له مال يسير وآلة فأخذت وحسن وفاء زيرك له فأعجب ذلك للراضي فاصطنعه وحسنت خدمته له فتمكنت عنده حالة وغلب عليه إحسانا كثيرا وأقطعه البستان المعروف بالشفيعي ووهب له من أنواع الطيب ما كان أمله يقصر عن مثله، وكذا من الجواهر والبلور وآلة الذهب والفضة، وما رأيت البلور عند ملك أكثر منه عند الراضي ولا عمل ملك منه ما عمل ولا بذل في أثمانه ما بذل، حتى اجتمع منه له ما لم يجتمع لملك قط.

عظم في أول أيام الراضي أمر مرداويج[2] السلمي بأصبهان وتحدث الناس عنه أنه يريد تشعيث الدولة وقصد بغداد، وأنه لمساهم لصاحب البحرين مجتمع معه على ما يحاوله، ثم ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه، وأن رئيس الغلمان غلام يعرف ببجكم، وأنه خرج عن أصبهان ومعه جماعة من الأتراك قد رضوا به صاحبا لهم ورئيسا عليهم، فزعم ابن ياقوت أنه وكاتب فيه الغلمان ووجه برسل إليهم يحضهم على ذلك ويرغبهم في حسن الفائدة عليهم في العاجل من جهة الخليفة، وفي الثواب بطاعتهم لخليفة، ونفذت كتبه إلى بجكم، والغلمان بتحقيق ظنونهم والتقدم إليهم لقصد مولاهم وقتله ليبلغ لهم ما أملوه ودخل ابنا المنجم أحمد بن يحيى وعلي بن هارون فأنشدا الراضي في يوم خميس شعرا يهنيانه بهذا الفتح وتخلفتُ أنا لشيء وجدته ثم دخلت إلى الراضي في يوم السبت بعد الخميس بيومين وأنشدته:

ضَحِكَ الدَّهْرُ بعد طُول عُبُوسِ ... طَالِعًا بالسُّعُودِ لا بالنُّحُوسِ

---

(١) في الأصل: وترود.

(٢) في الأصل مرداويح، بالحاء المهملة، والمعروف من كتب التاريخ ما ذكرناه.

وأتتنا الأيامُ معتذراتٍ ... لابساتٍ نعيمها بعدَ بُوسِ
بالإمامِ الرَّاضِي المُطلِّ على الآ ... داب شَمْسِ المُلُوكِ وابنِ الشُّمُوسِ
سَبْعَةٌ مِنْ خَلائِفٍ ولَدُوهُ ... لَمْ يكُنْ ذَا لغيرِه مِنْ رَئِيسِ
رَضِيَ الرَّاضِي الإلَهُ لِمُلْكٍ ... أَوْضَحَ النَّهجَ مِنْهُ بَعْدَ الدُّرُوسِ
فهو كالخِضْبِ بَعْدَ وافِدِ جَدْبٍ ... رُعِيَ الغَضُّ مِنْهُ بعدَ اليَبِيسِ
آنَسَ اللهُ بالخليفةِ مُلْكًا ... مَوحِشَ الرَّبْعِ وَاهِنَ التَّأْسِيسِ
فَهوَ يختالُ فِي الجَدِيدِ مِنَ اللَّبْـ ... ـسَةِ والحُسْنِ بَعْدَ لُبْسِ الدَّرِيسِ
يَا نَسِيمَ الحَيَاةِ أَضْحَكْتَ دَهْرًا ... كانَ لَولاكَ دَائِمَ التَّعْبِيسِ
إنَّ أيَّامَكَ اللَّذَاذَ كَوَصْلِ الْـ ... ـحِبِّ طِيبًا وَنَوْمَةِ التَّعْرِيسِ
مَرْدَوَاجٌ بِسَيْفِ حَظِّكَ مَقْتُو ... لٌ فَأَهْوِنْ بِذَاكَ مِنْ مَرْمُوسِ
قَصَفَتْهُ رِيَاحُ أَيَّامِكَ الْغُرْ ... رِ فَأَخْمَدْنَ مِنْهُ نَارَ المُجُوسِ
ثُلَّ عَرْشُ اللَّعِينِ أَسْرَعَ مِمَّا ... سُلِبَ العَرْشُ مِنْ يَدَيْ بِلْقِيسِ
وَتَوَلَّتْ بِمَأْتَمِ الدَّهْرِ أَيَّا ... مٌ أَتَتْنَا تَجُرُّ ذَيْلَ العَرُوسِ
بَعْدَ كُفْرٍ لِنِعْمَةٍ وَقَبِيحٌ ... كُفْرُ عَبْدٍ فِي نِعْمَةٍ مَغْمُوسِ
وَجِزَى المُسْلِمِينَ تُؤْخَذُ قَسْرًا ... بِخُرُوجٍ عَلَيْهِمُ وَمُكُوسِ
حَابِسُ المَالِ عَنْهُمُ مُسْتَضَامٌ ... باتِّسَاعِ الأَذَى وضِيقِ الحُبُوسِ
وكَأَنَّ العِيَالَ إِذْ فَقَدُوهُمْ ... أُنْشِرُوا فِي البِلَادِ بَعْدَ الرُّمُوسِ
وكَأَنِّي بِهِمْ حَمَائِلَ إِقْبَا ... لٍ طَوِيلِ الإِطْرَاقِ والتَّنَكِيسِ
حَسَّهُمْ سَيْفُكَ الحُسَامُ فَأَضْحَوْا ... هُمَدًا مِنْهُ مَا لَهُمْ مِنْ حَسِيسِ

يَـا حُـلِيَّ الزَّمَـانِ يَـا زِينَـةَ الأَرْ ... ضِ وَرَأْسَ المُلُـوكِ وَابْـنَ الـرُّءوسِ

إِنَّ نُـصْحِي وَصِـدْقَ وُدِّي قَـدِيمٌ ... لَمْ أَشُـبْهُ بِـالزُّورِ وَالتَّـدْلِيسِ

قَبْـلَ أَنْ يَأْكُـلَ الزَّمَـانُ شَـبَابِي ... خَالِـسًا غُـرَّتِي بِـشَعْرٍ خَلِـيسِ

مَـا أُطِيـلُ المَقَـالَ خَوْفًـا لإِضْـجَـ ... ـرِ إِمَـامٍ مُؤَيَّـدٍ مَحْـرُوسِ

وَأَرَى النَّـاسَ أَظْهِـرُوا بِمَـدِيحٍ ... لِيَ مِنْـهُ البُكُـورُ بِـالتَّغْلِيسِ

رُبَّ بَـذْلٍ سَـقَيْتَنِي مِنْـهُ كَأْسًـا ... فَأَعِـدْ لِي مُـدَارَ تِلْـكَ الكُئُـوسِ

حِـينَ شَرَّفْتَنِـي فَكُنْـتُ بِـنُعْمَا ... كَ جَلِيـسًا مِـنْ قَبْـلِ كُـلِّ جَلِـيسِ

ثُـمَّ أَفْرَدْتَنِـي خُـصُوصًا بِـبِرٍّ ... مُفْـرَدٍ طَـاهِرٍ مِـنَ التَّـدْنِيسِ

إِنَّ بَيْنِـي وَبَـيْنَ دَهْـرِيَ حَرْبًـا ... جَـاوَزَتْ حَـرْبَ دَاحِسٍ وَالْبَسُوسِ

أَنَـا مِنْـهُ لِغَـيْرِ هَجْـرٍ وَوَصْـلِ ... وَاقِـفٌ بَـيْنَ لَوْعَـةٍ وَرَسِـيسِ

فَـاعْتَبِرْ مَـا شَـكَاهُ عَبْـدُكَ مِنْـهُ ... ثُـمَّ دَاوِ الخُنَـاقَ بِـالتَّنْفِيسِ

هُـوَ فِي مِخْلَـبِ الزَّمَـانِ فَـرِيسٌ ... فَـارْحَمِ الآنَ نَفْـسَ هَـذَا الفَـرِيسِ

وَاسْـقِهِ مِـنْ سُـلاَفِ جـودِكَ بَـذْلًا ... فَـاقَ طِيبًـا سُـلاَفَةَ الخُنْـدَرِيسِ

يُطْلَـقُ الـشِّعْرُ فِي أُنَـاسٍ وَشِـعْرِي ... وَقْـفُ مَـدْحٍ عَـلَى الإِمَـامِ حَبِـيسِ

لَمْ تَـزَلْ فِي القَـدِيمِ تَلْـبَسُ مِنْـهُ ... مُـسْتَجَدَّ الطِّـرَازِ غَـيْرَ لَبِـيسِ

لاَ أُعَـلِّي بِـهِ لِعُلْـوَةَ فِكْـرًا ... فِي مَـشِيبٍ لَهَـا وَلاَ لِلْعَمِـيسِ[1]

مِـدَحٌ لَمْ يَـزِدْ عَلَيْهَـا زِيَـادٌ ... وَهْـوَ خَـاشٍ رَدَى أَبِي قَـابُوسِ

---

(١) علوة: اسم امرأة، ويقال: امرأة متعامسة؛ أي: تتستر في شبيبتها ولا تتهتك.

لاَ وَلاَ حَـــاكَ مِـــثْلَهُنَّ جَرِيـــرٌ ... عِنْـــدَ إِيحَـــاشِ رَبْعِـــهِ الْمَـــأْنُوسِ

قَـــامَ هَـــذَا الْمَـــدِيحِ بِالعُـــذْرِ مِنِّـــي ... نَائِبًـــا عَـــنْ نَـــشِيدِ يَـــوْمِ الْخَمِـــيسِ

فَالْقَـــهُ بِالنَّجَـــاحِ يَـــا أَكْـــرَمَ الأُ ... مَّـــةِ أُعْطِـــي بِـــهِ يَمِـــينَ غَمُـــوسِ

لِيَ سَـــبْقُ الْمَـــدِيحِ فِيـــكَ عَـــلَى النَّـــا ... سِ وَفَخْـــرٌ بِالـــسَّبْقِ فِي التَّأْسِـــيسِ

هِـــيَ حَـــالٌ لَـــيْسَ الـــشَّبَابُ وإِنْ فُـــضَّ ... ـــهِلَ خَـــيْرًا فِيهَـــا مِـــنَ التَّعْنِـــيسِ

يَـــا إِمَامًـــا بِـــهِ أُمِـــرَّتْ عُـــرَى الْحَـــ ... ـــقِّ وَحُلَّـــتْ مَعَاقِـــدُ التَّلْبِـــيسِ

أَيَّـــدَ اللهُ مُلْكَـــهُ بِـــوَزِيرٍ ... عَـــالِمٍ بِالزَّمَـــانِ طَـــبٍّ رَئِـــيسِ

ضَـــامِنٍ بِالْوَفَـــاءِ مِنْـــهُ رِضَى اللـــ ... ـــهِ بِحِفْـــظِ الـــرَّئِيسِ والْمَـــرْءُوسِ

ظَمِـــئَ الْمُلْـــكُ قَبْلَـــهُ فَـــسَقَاهُ ... رِيَّـــهُ مِـــنْ زُلاَلِ نُـــصْحٍ مَـــسُوسِ

حَاصِـــدٍ لِلْعِـــدَى بِـــأَقْلاَمِ رَأْيٍ ... تَقْطَـــعُ الـــسيفَ عَنْـــدَ حَمْـــيِ الْـــوَطِيسِ

كَيْـــدُهُ وَافِـــدٌ عَلَـــيْهِمْ بِيَـــوْمٍ ... قَمْطَرِيـــرٍ بِـــمَا يَـــشُقُّ عَبُـــوسِ

بَـــانَ فَـــضْلاً عَـــلَى الْكُفَـــاةِ كَـــمَا بَـــا ... نَ عَـــلَى ابْـــنِ اللَّبُـــونِ فَـــضْلُ الـــسَّدِيسِ

طَـــابَ أَصْـــلاً وَبَابْنِـــهِ طَـــابَ فَرْعًـــا ... غَـــرَسَ الْمُلْـــكُ منـــه خَـــيْرَ غَـــرِيس

قَـــدْ أَمَـــرَّ الزَّمَـــانُ طَوْعًـــا عَلَيْـــهِ ... فَـــسَخَا بَعْـــدَ نَفْـــرَةٍ وَشُـــمُوسِ

فَـــتَرَى النَّـــاسَ خَاضِـــعِينَ إِلَيْـــهِ ... مِـــنْ قِيَـــامٍ بِـــأَمْرِهِ وَجُلُـــوسِ

أَمْتَـــعَ اللهُ بِـــالْوَزِيرِ إِمَامًـــا ... خُـــصَّ مِـــنْ نُـــصْحِهِ بِعِلْـــقٍ نَفِـــيسِ

وَأَطَـــالَ الْبَقَـــاءَ لِلْمَلِـــكِ الـــرَّا ... ضِي إِلَـــهٌ أَصْـــفَاهُ وُدَّ النُّفُـــوسِ

وقد يعلم الله تعالى أن الراضي بالله في حال إمارته وأخاه هارون لما أمر نصر الحاجب أن يتقدم إلي بخدمتهما وأن يجعل على نوبة لهما يومين في كل

أسبوع، ففعل ذلك، دخلت إليهما فرأيتهما ذكيين فطنين عاقلين إلا أنهما خاليان من العلوم، فعاتبت ابن غالب مؤدبهما على ذلك، وكان الراضي أذكاهما وأحرصهما على الأدب، فحببت العلم إليهما واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة فتنافسا في ذلك، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه، وقرأ علي الأخبار والأشعار فقلت: إن الحديث أولى بكما وأنفع لكما من هذه، وهو أولى أن يبتدأ به، وجئتهما بأعلى من بقي من الزمان إسنادا، وهو أبو القاسم ابن بنت منيع، واختلف إليهما مجالس ونسخت لهما علو حديثه ومشايخه، مثل علي بن الجعد وابن عائشة وأبي نصر التمار، وجميع علومه ومختار حديثه، واحتجنا إلى أن نبره بدنانير، فوجه إلي من جهة والدتهما: والله ما عندنا دنانير لهذا المحدث ولا بنا حاجة إلى مجيئه، فعرفت نصرا الحاجب ذلك فقال: خذ له من مالي كل شيء يريده، فأوصل إليه في مدة شهرين أربعمائة دينار.

وقرأ علي من كتب اللغة كتبا كثيرة منها خلق الإنسان للأصمعي، فمضى خدم سمعوا ذلك إلى المقتدر وإلى والدته، فقالوا لهما: إن الصولي علمهما أسماء الفرج والذكر، فدعا المقتدر نصر الحاجب فعرفه ذلك ودعاني نصر الحاجب وكان من أحسن الناس عقلا فسألني عن ذلك، فعرفته السبب فيه، فقال: جئني بالكتاب، فجئته وعرفته أن هذا من العلوم التي لا بد للفقهاء والقضاة منها، وأنهم يلجئون إلى أهل اللغة فيها وأخذ الكتاب وأدخله إلى المقتدر وعرفه ما عرفته، فأزال كل شيء خفته، ثم قلت للراضي بالله: قد أمرت أن تجلس في غد ليملك بحضرتك ابن الجواليقي بدار السيدة، وقد وعدوا جماعة فيهم الحسين بن إسماعيل المحاملي، وسيبكر إلى هاهنا في غد، فارفع مجلسه وأقبل عليه وانبسط في مذاكرته، وإني أحب أن يسمع الناس وصفك والثناء عليك من مثله، ففعل جميع ذلك، ثم حضرت وانقضى أمر الإملاك، فأخذ المحاملي بيد أبي بكر الخرقي، وقال: ما رأيت في أهل هذا البيت شيخا ولا

كهلا ولا حدثا يشبه هذا الفتى يقول حدثنا وأخبرنا وينشد ويعرب، وهذا كله من فعل هذا، وأومأ إلي فأحب أن تتحمل رسالتي إلى القهرمانة ريدان، وتقول لها: ما الذي فعلتم بمن صير هذا الأمير في هذا الحال؟ فقلت أنا لأبي بكر: الله يعلم ما أفعل هذا إلا لله عز وجل؛ لأني أقول لعلهما أن يليا من أمور المسلمين شيئاً فينفعهم الله بهما، وجعلت أقتضي أبا بكر الجواب فدفعني أيامًا ثم قال لي: أنت في طرف والقوم في طرف، أديت إلى ريدان قول القاضي فقالت لي: إن هذه المحاسن من هذا الرجل عند السيدة ومن يخدمها مساوئ، فقل له: عني يا هذا، ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء، وهذا أبوهم قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم فاعمل على ذلك، فأتيت نصرا الحاجب فأخبرته بذلك فبكى، وقال: كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم، فقلت: والله ما أعود إليهما بعد هذا، فقال: ولا لك حظ في ذلك، ولكن امضِ ساعة في الأيام ثم اقطع.

وكان ابن أبي الساج في هذا الوقت بواسط عازما على لقاء القرامطة وكنت أنفذت إليه رسالة طويلة في كتاب عملته له أوصيه فيه بالمطاولة، وهي رسالة حسنة قد سرقها الناس مني تجمع ضروبًا من العلوم، فجاءني في جوابه مع كاتب له يعرف بابن حراشة، وفي آخر الكتاب: وقد بلغني خبرك وقول من قال: لا نريد أن يكون أولادنا علماء، وإنا لله على ما بُلي الناس به، وأفزعني ذلك، وخفت أن يظن أني المبدي لهذا والمتكلم به، فصرت إلى نصر الحاجب فعرفته ذلك، فقال: إن لابن أبي الساج خدمًا في الدار لا يخفون عنه الأنفاس، وهذا فإنما علمه من جهتهم، فسكنت نفسي إلى ذلك وانقطعت عنهم، وكان لهم بعدي هنة سر[1] لحجبتهم لها كل أحد، وكان ثم قوم قد نفسوا على موضعي منهم، وكان الراضي وعدني بفص كنت استحسنته، فكتبت إليه

---

(١) في الأصل: أسر لحجبتهم.

بقصيدة أسأله فيها التوجيه إلي بالفص، فكتب إلي إنما أتفرخ بما يرد علي من جهتك فاكتب إلي بشعر صادي قافيته الفص، فعملت القصيدة وكتبت بها إليه وهي:

أَلا قُـلْ لِخَـيْرِ النَّـاسِ نَفْـسًا وَوَالِـدًا ... وَرَهْطًـا وَأَجْـدَادًا مَقَالَـةَ مُخْـتَصَّ

مُحَمَّـدِ الْمَـأْمُولِ وَالْمُقْتَـدَى بِـهِ الْـ ... ـلأَمِيرِ أَبِي الْعَبَّاسِ ذِي الْفَضْلِ لا الـنَّقْصِ

وَمَـنْ جَمَـعَ الآدَابَ بَعْـدَ افْتِرَاقِهَـا ... وَثَقَّفَهَـا بِالْبَحْـثِ مِنْـهُ وَبِـالْفَحْصِ

دَقِيـقِ حَـوَاشِي الـذِّهْنِ هُـذِّبَ طَبْعُـهُ ... وَمُحِّـصَ فِي قُـرْبِ الْمَـدَى أَيَّـمَا مَحْـصِ

بَعِيـدِ الْقَبُـولِ مِـنْ حَـسُودٍ مُكَـاشِرٍ ... تَخَلَّـفَ عَـنْ أُولاهُ بِـالنَّزْغِ وَالْقَـرْصِ

لَـئِنْ سَـاغَ لِي أَكْـلِي وَشُرْبِي فَـإِنَّنِي ... كَـذِي شَرَقٍ مِـنْ غَيْبَتِـي عَنْـهُ مُغْـتَصِّ

وَقَـدْ كُنْـتُ ذَا حَـظٍّ لَدَيْـهِ وَزُلْفَـةٍ ... فَجَاءَ الَّـذِي حَاذَرْتُ فِيـهِ عَـلَى غَفْـصِ

بِقَـسْخِ الَّـذِي سَـدَّى وَأَلْحَـمَ بَـاطِلًا ... وَقَـدْ وَقَـصَاهُ عَـاجِلًا أَيَّـمَا وَقْـصِ

مِـنَ أَكْلُـبِ خُوزَسْـتَانَ نَغْـلٌ مُحَقَّـرٌ ... ضَئِيلٌ خَفِيُّ الشَّخْصِ فِي صُورَةِ الدَّرْصِ

وَأَلْهَـبَ مِنْـهُ الْجَمْـرَ بِـالنَّفْخِ حَابِـلٌ ... عَلُـوقٌ بِأَذْنَـابِ الأَكَاذِيـبِ كَالـشَّصِّ

يَثُـو مُعْـوَرَاتِ الطُّـرْقِ جَـاءُوا بِعَـوْرَةٍ ... ذَوُو الآنـفِ الـذَّكَّاءِ وَالأَعْـيُنِ الـرُّمْصِ

أُولُـو بِطنَـةٍ فِي بَاطِـلٍ وَتَكَـذُّبٍ ... وَصِـدْقُهُمُ يَـأْوِي إِلَى أَبْطُـنٍ خُمْـصِ

فَـمَا أَسْـنَدُوا قَـوْلًا إِلَى ذِي تَمَاسُـكٍ ... وَلاَ شَـيَّدُوا زُورَ الْمَقَـالِ عَـلَى إِصِّ

وَبِالْقَـصْرِ قَـوْمٌ إِنْ رَأَوْنَـا تَبَلَّغُـوا ... وَحَطُّـوا لَنَـا الأَعْنَـاقَ كَـالرَّخَمِ الْقُـصِّ

تَلاَقَـتْ بِتَأْلِيـبٍ عَلَيْنَـا جُفُـونُهُمْ ... وَفَرَّقَـتِ الأَقْـوَالَ بِالثَّلْـبِ وَالْغَمْـصِ

وَمَـا قَبِلُـوا نُـصْحَ الْعَـرُوضِيِّ فِي الَّـذِي ... رَآهُ وَرَصُّـوا إِفْكَهُـمْ أَيَّـمَا رَصِّ

وَقَدْ هَطَلَتْهُ غَيْبَةٌ مِنْ سَحَابِهِمْ ... وَكَالُوا لَهُ صَاعًا مِنَ النَّثِّ والْقَصِّ

وَهَبَّ لَهُ فِي بُعْدِهِ لَكَ قَاصِفٌ ... مِنَ الْحُزْنِ يُنْتِي صبرَهُ عَنْكَ بَلْ يُقْصِي

فَغَصَّ بِشُرْبٍ مِنْ فِرَاقِكَ آجِنٍ ... عَصُوفٍ بِجَذْوَاهُ أَمَرَّ مِنَ الْعَفْصِ

وَإِنْ أَنْجَزَ الإِمْكَانُ يَوْمًا بِجَلْسَةٍ ... لَدَيْكَ أَتَاكَ الْقَوْلُ بِالشَّرْحِ واللَّخْصِ

فَأَدْنَيْتَ حَقًّا قَدْ أُطِيحَ بِشَخْصِهِ ... إِلَى نَزَوَانِ الْقَوْمِ بِالزُّورِ والْقَنْصِ

فَأَقْتَبِلُ الْعَيْشَ الْغَرِيرَ بِقُرْبِكُمْ ... وَأَسْحَبُ فِي لَذَّاتِهِ أَذْيَلَ الْقُمْصِ

بِحَقٍّ أَفَاضَ الْقَلْبُ فَاضِلَ شَرْبَةٍ ... مِنَ الْهَمِّ حَتَّى جَاءَنِي الأَمْرُ مِنْ فَصِّ

وَأَطْلَعَ شَخْصُ الْحَقِّ عِنْدَكَ وَجْهَهُ ... إِلَى أَنْ يَقُودَ الْقُرْبُ مَنْطِقَ مُسْتَقْصِي

تَحَيَّفَنِي رَيْبُ الزَّمَانِ بِبُعْدِكُمْ ... تَحَيُّفَ مِقْرَاضِ الْمُجَازِفِ فِي الْقَصِّ

إِلَيْكَ تَرَامَتْ بِي الأَمَانِيِّ هِمَّةٌ ... عَلَى لُحُقِ الأَقْرَابِ ضَامِرَةِ حُصِّ

وَخُوصٍ سَقَتْهَا الآلَ كَأْسُ هَجِيرِهِ ... فَأَفْنَتْهُ بِالْوَجْدِ الْمُواشِكِ والرَّقْصِ

إِلَى ابْنِ الَّذِي أَحْيَا الْبَرِيَّةَ عَدْلُهُ ... فَشُبِّهَ بِالْفَارُوقِ فِيهِمْ أَبِي حَفْصِ

وَقَدْ كَانَ لِي وَعْدٌ عَلَيْكَ بِخَاتَمٍ ... عَلُوقٍ بِلَحْظِ الْعَيْنِ مُسْتَمْلَحِ الشَّخْصِ

شَرِيفٍ إِذَا مَا رَفَعُوهُ لِسَيِّدٍ ... تَعَاظَمَ واسْتَعْلَى بِهِ شَرَفُ الفَصِّ

فَلاَ أَنَا طَالَعْتُ الأَمِيرَ بِذِكْرِهِ ... بِتَعْرِيضِ قَوْلٍ فِي الْخِطَابِ وَلاَ نَصِّ

وَلاَ أَنْجَدَتْنِي مِنْهُ فِي ذَاكَ حُظْوَةٌ ... تُذَكِّرُ إِنْجَازًا وَلَسْتُ بِذِي حِرْصِ

وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُسَرِّيَ لُبْسُهُ ... فَيَأْخُذَ مِنْهُ اللُّبْسَ أَخْذَةَ مُقْتَصِّ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَرْعٌ يُقَاوِمُ غُلَّتِي ... بِرِيٍّ قَنِعْنَا فِيهِ بِالرَّشْفِ والْمَصِّ

إِذَا لَمْ يَكُنْ كُلُّ الَّذِي يَشْتَهِي الْفَتَى ... فَفِي الرَّأْيِ أَنْ يَرْضَى وَيَقْنَعَ بِالْقُصْصِ

ولَسْتُ كَمَنْ يُمْضِي عَلَى الظَّنِّ حُكْمَهُ ... وَيَجْعَلُ إِسْنَادَ الرِّجَالِ إِلَى حَصِّ

وإِنِّي لَأُغْلِي المَدْحَ إِلا عَلَى الَّذِي ... يُغَالِي بِإِعْطَاءٍ وَلَسْتُ بِذِي نَقْصِ

بِذِي هِمَمٍ قَلْبٌ لاَ بِخَرِيدَةٍ بِهَا ... يَمِيسُ بِهَا غُصْنٌ رَطِيبٌ عَلَى دعْصِ

صَلِيبَةُ عَزْمِ الْقَلْبِ كَالصَّخْرِ قَلْبُهَا ... عَلَى أَنَّهُ يَكْتَنُّ فِي جَسَدٍ رَخْصِ

وَلاَ بِشَمُولٍ لَذَّةِ الطَّعْمِ قَرْقَفٍ ... مَنَاسِبُهَا فِي عُمْرِ كَرْكِيَ وَالْقُفْصِ

فَلَوْ كَانَ فِي حِمْصٍ يُرَجَّى شَبِيهُهُ ... لَسَاقَ مَطَايَايَ الرِّجَالُ إِلَى حِمْصِ

أَمِيلُ إِلَى شُرْبِ الْكِرَامِ بِغُلَّتِي ... وَلَسْتُ لأَوْشَالِ اللِّئَامِ بِمُمْتَصِّ

فَقُولُوا لِمَنْ قَاسَ الأَمِيرَ بِغَيْرِهِ ... تَأَيَّدْ فَمَا الْكَيْلُ الْمُحَصَّلُ كَالْخَرْصِ

تَيَمَّمْتَ زُورًا فِي الْمَقَالِ وَبَاطِلًا ... لَدَى خُرُقٍ سَادَ الصُّخُورَ عَلَى رَهْصِ

مَحَاسِنُ هَذَا الْخُلْقِ مِنْكَ ابْتِدَاؤُها ... وَيَجْذِبُهَا ذُو كُلْفَةٍ مِنْكَ كَاللُّصِّ

كَذَا الْمَجْدُ لاَ بِالْمَالِ يُجْمَعُ شَمْلُهُ ... وبِالدُّورِ شِيدَتْ بِالقَرَامِيدِ وَالْجِصِّ

فَلاَ زِلْتَ لِلدَّهْرِ الْمُمَلَّكِ مَالِكًا ... يَطِيعُكَ فِيمَا تَشْتَهِيهِ وَلاَ يَعْصِي

وَحُزْتَ مِنَ الأَعْمَارِ أَقْصَى نِهَايَةٍ ... تَفُوتُ مَدَى الإِحْصَاءِ فِيهَا يَدُ الْمُحْصِي

فوجه بخاتم فصه ياقوت سمانجوني، ووجه معه بصلة، وكتب إلي ما أعرف والله مثل هذه الصادية لأحد وقد بخستك في القيمة اضطرارا لا اختيارا، إلى أن يستقيم الزمان إن شاء الله.

وإنما آتي من الأشعار التي قلتها في الراضي بطرف للحاجة إلى المعنى الذي قيلت فيه، وإلا فالشعر كثير فيه، وقد أتيت في عملي أخبار المقتدر بشيء يسير منه إلا أنني آمل ألا يستهجن الأدباء ما أورد منه لصلاحه وصفوته وصعوبة قوافيه وسلامته مع ذلك من تكلف يهجنه وسخافة لفظ ترذله إن شاء الله.

وتمزق الأمر بين محمد بن ياقوت ومحمد بن علي بن مقلة، واستبد ابن ياقوت بالأمر دونه ولم يمض أمرا إلا بتوقيعه، ونظر في الأموال، ورمى بأكثر أمره إلى كاتبه محمد بن أحمد القراريطي، إلى أن أظهر الوزير إطباق دواته، وترك النظر في شيء البتة، فإذا اضطر أن يوقع في أعمال أو ينظر في أمر مال عرضت توقيعاته على ابن ياقوت فما أراد أمضاءه رضيه وقع فيه بإمضائه، وما لم يرده لم يوقع فيه فبطل، ولم يلتفت إلى توقيع غيره، فما زال الوزير يعمل في أمره حتى قبض عليه، وأنا أذكر ذلك في حوادث السنين إن شاء الله.

وكنا ليلة نشرب مع الراضي فوصلنا وجيء برغيف كبير بحرف وافر قد عمل من ند فرمى به إلينا وقال: انتهبوه فبدروني فاستلبوه دوني وسخفوا وتبذلوا حتى تكشف واحد منهم وكل ذلك بعينه فسألته العوض فقال: صف أمرك معهم وصف الزبيدية فإنك مشغوف بها وأنا على العبور عليها حتى أعوضك وانصرفت فعملت في ذلك قصيدة زائية قلت من خير زائية قيلت قط؛ فلذلك أذكرها وكان ذلك في أيام النيروز وهي :

بَارَكَ اللهُ لِلأَمِيرِ أَبِي الْعبـ ... ـباسِ خَيْرِ الْمُلُوكِ فِي النَّيْرُوزِ

وَأَرَاهُ أَوْلاَدَهُ الْغُرَّ أَجْدَا ... دًا بِمُلْكٍ نَامٍ وَعِزٍّ عَزِيزِ

فَهُوَ أَوْلَى بِهِ وَبِالْجُودِ فِيهِ ... مِنْ أَبْرِوِيزَ وَمِنْ فَيْرُوزِ

لَهُمُ فِي الْهِلاَلِ هُرْمُزُروزٍ ... وَلَنَا الدَّهْرِ فِيكَ هُرْمُزُرُوزِ

فَاقْتَبِلْ جِدَّةَ الزَّمَانِ بِعَامٍ ... بَارِزٍ بِاللُّجَيْنِ والإِبْرِيزِ

ضَاحِكَاتٍ أَيَّامُهُ طَائِعَاتٍ ... طَاعَةَ الْحُبِّ بَعْدَ طُولِ النُّشُوزِ

وَاقْضِ حَقَّ النَّيْرُوزِ فِيهِ بِكَأْسٍ ... مُزْعَجٍ سَقْيُهَا بِكَأْسٍ وَكُوزِ

فِيهِ نَقْشٌ مُلَوَّنٌ مِنْ يَدَيْ مَنْ ... لَمْ تَشُبْهُ مَعَايِبُ التَّلْوِيزِ

طَلَعَتْ شَمْسُ وَجْهِهِ تَحْتِ دَاجِيَ الـ ... شَعَرِ الجَعْدِ صِبْغَةَ الشُّبْرُوزِ

مِنْ عُقَارٍ تَرَى الفَتِيَّةَ مِنْهَا ... عَجَزَتْ عَنْ كَمَالِ حُسْنِ العَجُوزِ

يَشْتَكِي كَرْمُهَا الأُوَامَ لَدَى القَطْـ ... ـفِ وَمَا زَالَ كَارِعًا فِي البُزُورِ

وعَلَى مُقْبِلٍ مِنَ السَّعْدِ مَحْجُو ... بٍ عَنِ النَّحْسِ والأَذَى مَحْجُورِ

بِالزُّبَيْدِيَّةِ المُشَهَّرَةِ الحُسْـ ... ـنِ وَحَوْزِ اللَّذَاذَةِ المَأْحُورِ

وصُنُوفٍ مِنَ الجَوَاهِرِ تَبْدُو ... كُلَّ يَوْمٍ مِنْ كَنْزِهَا المَكْنُورِ

يَامَسِينٌ حكَى قُرَاضَةَ تِبْرٍ ... فَتَقُوا طِيبَهُ بِمَرْمَاحُورِ

يَضْحَكُ الوَرْدُ عِنْدَهُ بَيْنَ نِسْرِيـ ... ـنَ وَبُسْتَانِ لعبهم آبْرُوزِ[1]

وبِرِيَاحٍ مِنَ الرِّيَاحِينِ أَدَّتْ ... نَشْرَ مِسْكٍ بعَنْبَرٍ مَعْرُورِ

وبِهَا مِن جَمَاحِمٍ هَامُ رَنْجٍ ... مُشْرِفَاتِ الطُّلَى عَلى سِينِيزِ

ومِيَاهٍ يَشْكُو الجَدَاوِلُ أَبَسَّا ... لم تُمَزَّقْهُ حادثَاتُ النُّزُورِ

وبِنَارِنْجِهَا المَحَمَّلِ تِبْرًا ... ومِيَاهٍ مِنْ آسِهَا المَجْزُورِ

وتَخِيلٍ تَرَفَّعَ النَّوْعُ منها ... عَنْ حِوَارِ الأَنْقَالِ والشَّهْرِيزِ

وبِهَا الطَّلْعُ مِثْلُ بِيضِ أَكُفٍّ ... بَرَزَتْ مِن مَخَصَّرَاتِ القُزُوزِ

وتَجَافَتْ عَنْهَا الجُفُوفُ فَشُبِّهْـ ... ـنَ كِمَامًا مفتَّقَاتِ الدُّرُوزِ

كَمْ زَمَانٍ مَضَى بِهَا مُسْتَلَذٌّ ... لَيْلُنَا فِيهِ مِثْلُ لَيْلِ الحَزِيزِ

قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ البَوَارِحُ عَنَّا ... وتُحِطَّ الرِّحَالُ مِن تَمُّوزِ

---

(١) كذا بدون إعجام مع ضم الهاء، وفي قاموس أدي شير (بستان أبروز) وهو نبات.

رضِيَ الـــرَّاضِيَ الإلـــهُ لِمُلْـــكٍ ... عَـــزَّزَ الـــدِّينَ أيَّـــما تعزيـــزِ[1]

فهـــوَ بـــالله في مَحَـــلِّ أمـــانٍ ... تحـــتَ حِـــرْزٍ مـــن القَـــضاء حَريـــزِ

أيَّـــدَ اللهُ مُلكَـــه بنَـــصيحٍ ... رازَ منـــه الزَّمـــانَ أذكـــى مَـــروزِ

بـــوَزيرٍ مؤيَّـــدِ الـــرَّأيِ قَـــدْ حـــا ... زَ بـــيُمْنِ التَّـــدبيرِ خَـــيْرَ مَحُـــوزِ

فكنُـــوزُ الآبـــاءِ ثابتَـــةٌ منْـــهُ ... كُـــلَّ يـــومٍ مُجَـــدَّدٍ بكنُـــوزِ

قَلَـــمٌ يملـــكُ الـــوَرَى فهـــو أمْـــضى ... مـــن حُـــسامٍ عـــلى الأعـــادي جَـــرُوزِ

ومـــن الـــسَّهْمِ حـــينَ يَـــسْتَلِبُ العُمْـــ ... ـــرَ اخْتِطافًـــا وعامـــلٍ مَجْلُـــوزِ

حَتَـــفَ اللهُ مَـــرْدَواجَ بحـــدٍّ ... منْـــهُ في أنفُـــسِ الـــوَرَى مَرْكُـــوزِ

كـــم عَـــدُوٍّ أبـــادَهُ غـــيْرَ مَقْبُـــو ... نٍ بمَـــرْدَى الـــرَّدَى ولا مَجْنُـــوزِ

وكـــذا يَـــسْتَمِرُّ في كُـــلِّ عـــاصٍ ... وَنَبِـــيطٍ لهُـــمْ عُتـــاةٍ وخُـــوزِ

غَـــرُزُوا كـــالجَرادِ نَـــسْلَ فـــسادٍ ... مَحَـــقَ اللهُ ذاكَ مـــنْ تَغْرِيـــزِ

فهـــو كالـــشَّهدِ للنَّـــصيحِ المُـــوَالِي ... وَكَـــسَيْفٍ عَـــلَى العِـــدَا مَهْـــزُوزِ

لم يَـــضِقْ بـــالأمورِ صَـــدْرًا ولا أصْـــ ... ـــبَحَ فيهـــا كحـــائرٍ مَلْهُـــوزِ

وعَـــلِيٌّ كـــذاكَ غَـــيْرُ ظنِـــينٍ ... في مُراعاتِـــه ولا مَلْمُـــوزِ

بَـــلْ يُنـــادِي الأعْـــدَاءَ منْـــهُ بـــرَأْيٍ ... غَـــيْرِ مُـــسْتَنْقَصٍ ولا مَغْمُـــوزِ

فَـــرِداءُ الـــشَّباب ضَـــافٍ عَلَيْـــهِ ... وهـــو ذو حُنْكَـــةٍ ورأيٍ مَريـــزِ

كـــم عـــدُوٍّ يبيـــتُ منـــهُ عـــلى صـــ ... ـــحَّةِ جـــسمٍ بلَيْلَـــةِ المُنْكُـــوزِ

---

(١) في الأصل: عزا ذا الدين مع فتح النون.

يا أجلَّ المُلوك عَقْلًا وعلْمًا ... مُفرَدَ السبق غيرَ ما مَلْزُوز

لَكَ عَبْدٌ كَساكَ فاخِرَ مَدْحٍ ... رَائِقٍ لُبْسُهُ لِيَاسَ الخُزُوز

لم يَشِنْهُ ذكرُ السَّبَاسِبِ والوَصْـ ... ـفُ لعيسٍ تَحْتَ الرِّحال جُمُوز

من قوافٍ على سِواهُ صِعَابٍ ... سُبِّقِ الجُرْيِ ظاهراتِ البُرُوز

خَطَرَتْ نَحْوَكَ القَوَافِي بِمَدْحٍ ... غيرِ مُسْتَهْجَنٍ ولا مَكْزُوز

بَيْنَ صادٍ وبَيْنَ ضادٍ وسينٍ ... ثُمَّ زايٍ مُبينةِ التَّبْريز

سائلُ الطَّبْعِ مُشْرِقُ اللَّفْظِ سَهْلٌ ... ما تُغَشِّيه ظُلْمَةُ التَّكْزيز

فائضٌ ماؤُه يجيءُ مُطيعًا ... غيرَ مُسْتَجْلَبٍ ولا مَنْحُوز

يَرْجِعُ الشِّعْرُ عَنْهُ حِين يُسامِيـ ... ـهِ بأنفٍ مُجَدَّعٍ مَخْزُوز

مَن يَرُمْ نَسْجَ مثلِه تَخْتَطِفْهُ ... لامعاتٌ من ذلك التَّطْريز

قَصَّرَ المُخْلِفُ المُعَلَّمُ عَنْ فَيْـ ... ـضِ صَيُودٍ مُعاوِدِ التَّكْرير

وكذا لا يُقاسُ بَيْنَ خَسِيفٍ ... فائضٍ عِدُّها بِبِئْرٍ نَكُوز

جُزْتُ فيه مَيْدَانَ قَوْمٍ أراهُمْ ... شُعَراءَ بالخَطِّ والتَّجْوِيز

يَسْتَمِيزُونَ لَفْظَ غَيْرِهِمُ فيـ ... ـهِ غِلابًا كَغَارة التَّكْليز

بقَوافٍ مَدُوسَةٍ ومَعانٍ ... مُخْلِقاتٍ ومَنْطِقٍ مَرْمُوز

وَكَزُوهُ لِيَلْحقُوهُ فَأَبْوا ... بِقَصِيرٍ عنِ المَدَى مَوْكُوز

حُرِموا الطَّبْعَ صاغرينَ فَسَارُوا ... مِنْ طَرِيقٍ إليهِ غيرِ مَجُوزِ

عَجَبٌ والقَضاءُ يُقْعِدُ ذا القُوَّـ ... ـةِ عَنْ خُطْوَةِ الضَّعِيفِ العَجِيز

كيفَ يحوِي التَّجْويدَ صاحبُ قَلْبٍ ... مُوجَعٍ من تَأَسُّفٍ مَوْحُوز

لا أَرَى كارِعًا لَهُمْ في إناءٍ ... لا ولا في بحارِهِمْ ذا نُهُوزِ

لَيسَ لي غَلَّةٌ تُحَصَّلُ مِمَّا ... في موازينهم ولا في قَفيزِ

لاَ وَلاَ لي في أَرضِهم قَيدُ شِبْرٍ ... في وِهادٍ لَهُمْ ولا في نُشُوزِ

دَرَّةُ الغُرْزِ هامِيَاتٌ عَلَيْهِمْ ... وَلَنَا دَرَّةُ القَطُوعِ الْعَزُوزِ

غَرزُوا أَرجُلَ الطَّمَاعَةِ فِي رُكْـ ... ـبٍ أَخَسَّتْ مِقْدَارَهُمْ وغُرُوزِ

لَوْ يكونُ التَّجْويدُ دارَ ثَوَاءٍ ... لَمْ يَجوزُوا منها مدى الدَّهْلِيزِ

قُلْتُ إِذْ جُوِّزَتْ بغَيْرِ انْتِقَابٍ ... لَكِ حَظُّ الْقِنَاعِ فِينا فجُوزي

فازَ منهم جَمَاعَةٌ بِأُناسٍ ... واتِّكَالِي عَلَيْكَ في التَّفْويزِ

لَسْتُ أَرْجُو سواكَ بعدَ إلهي ... عِنْدَ تَقْصِيدِهِمْ ولا التَّرجِيزِ

وَوَزِيرَيْنِ جَهَّزاني بجُودٍ ... نَعَّشَاني بذَلِكَ التَّجْهِيزِ

حِينَ عَيَّ الزَّمانُ عن ذِكْرِ حَظِّي ... جَبَرَا فاقَتِي بِجَودٍ وجِيزِ

أَنتَ أَدْرَى بالشِّعْرِ من قائليهِ ... فاقضِ فيهِ بالحَزْمِ والتَّعْجيزِ

وكذا العِلْمُ بالمحرَّكِ والسَّا ... كِنِ في نَحْوِهِمْ وبالمَهْمُوزِ

لَيْسَ إلا الَّذي يَضُمُّهُمُ المَجْـ ... ـلِسُ للانْتِحالِ والتَّمْييزِ

فَهُمُ فَوْقَ مَنْ يَرَى قَوْلَ حَقٍّ ... غيرَ مُسْتَنْكِرٍ ولا مَنْهُوزِ

فأَجِزْنِي بِقَدْرِ علمِكَ بالأَشْـ ... ـعارِ يا خَيْرَ مُنْعِمٍ ومُجيزِ

بِدَنانِيرَ لا أُحَالُ على الجِهْـ ... ـبِذِ فيهَا وَلاَ عَلَى كُتْبِ رُوزِ

وَرَغِيفُ النَّدِّ الَّذي غَصَبُونِيـ ... ـهِ وأَكْرِمْ بِذَاكَ مِنْ مَجْنُوزِ

غَلَبَتْنِي عَلَيْهِ أَيْدِي نِهَابٍ ... نَهَزَتْهُ بحَظِّهَا المَنْهُوزِ

سَبَقَتْني إليه سَبْقَ ذئابٍ ... خاطِفَاتٍ بِهَزَّةٍ وأَزِيزِ
كان خَتْلًا منهم كَخَتْلِ الحَوارِ ... يِ سَيْفِ الله ذِي الرَّدى جُرْمُوزِ
لو خَشِينَا البِدَارَ مِنْهُمْ لَعِشْنَا ... فيهِمُ كاللُّيُوثِ فِي الأَمْعُوزِ
ثُمَّ آبُوا بجانِبٍ طَيِّبِ النَّشْـ ... ـرِ وَأُبْنَا بِجانِبٍ مَخْبُوزِ
لُفَّ نفسي عليه مُلْقىً كَتُرْسٍ ... وافرِ الحَرْفِ مُشْرِفِ التَّفْرِيزِ
فَدُموعي من التَّأَسُّفِ تَجْرِي ... جَرْيَ وَفْرَاءَ وافياتِ الخُرُوزِ
جَمَزَتْنِي فَوارِسُ الحَظِّ منْهُ ... وا بلاَئِي مِنْ حَظِّيَ المَجْمُوزِ
قَدْ رَأَى سَيِّدِي وُقُوفِيَ حَيْرا ... نَ كَمُصْمِي الرَّمِيَّةِ المُتَزُوزِ
فَابْقَ يَا سَيِّدِي بَقَاءَ نَبِيرٍ ... غَيْرَ ما مَزْعَجٍ ولاَ مَحْقُوزِ
وتَمَلَّ السُّرُورَ سائِرَ مُلْكِ ... غَيْرَ مُسْتَنْقَصٍ ولاَ مَبْزُوزِ
تَتَخَطَّى مداسَ كُلِّ إِمامٍ ... قاهرَ العِزِّ غَيْرَ مَا مَعْزُوزِ

فلما أنشدته إياها استحسنها وقال: ما أعرف زاءية مثلها: بل لا أعرف زاءية إلا للشماخ: وتلك عجوز وهذه شابة: ثم عوضني أحسن تعويض بصلة وند وعنبر.

ولما جاء بحكم وهزم ابن رائق قال لنا: ما أحسن هذه الأبيات في المعنى الذي نحن فيه وأنشدنا:

إذَا قلتُ يَبرا بعضُ داءَ عَشيرَتي ... تلاقتْ غَواةٌ واستجدَّ نشور
كما نُشرت مخشيةُ العَرِّ بعدَ ما ... عَلا اللونَ بُرءٌ ظاهرٌ وطُرور
ومَولى عَصَاني واستبدَّ برَأْيِه ... كما لمْ يُطع بالبقَّتينِ قَصيرُ

فلـمَّا رَأى أنْ شـتَّ أمـرِي وأمـرُه ... وولـتْ بأعجـازِ الأُمـور صُـدُور

تمَنَّـي حُبـيشُ أنْ يكـونَ أَطَـاعَني ... وقـد حَـدثتْ بعـد الأمـورِ أمـورُ

كذا أنشدني تمنى حُبيش ثم قال: أتعرف مثله؟ قلت: لا، ولكن نحوه لطارق بن ديسق اليربوعي:

إذَا أنـتَ جَـاورتَ امـرَأَ الـسُّوءِ لم تَـزَلْ ... غَوائِلُـه تأتيـكَ مِـنْ حيـثُ لا تَـدرِي

وفِينَـا وإنْ قِيـلَ اصْـطَلَحنَا تَـضَاغُن ... كـما طُـرَّ أَوْبَـارُ الجـرابِ عـلى النَّـشر

ثم قلت: إن سيدنا -أطال الله بقاه- نشأ في حجر الصواب، فمن أين له تمنى حبيش؟ فقال لي: من حيث لا يطيف براويه عيب، فقلت: لو أن أبا عمرو بن العلاء روى هذا لكان أخطأ ناسه[1]، فقال: إن الطبري يقول هذا في كتاب تاريخه[2]، فقلت له: الطبري ليس في الغريب مثله في غيره روى الأصمعي وأبو عبيدة وابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني

تمنى نيشا أن يكون أطاعني

ومعناه: أنه تمنى شيئا[3] بعدما فاته، يقال: رأى هذا نيشا إذا رآه في آخرة، وقد فات قال بلال بن جرير:

كـم نَاصـحٍ قـد قـالَ لي ومَـا وَشَـا ... إنـكَ لم تنـأشْ لوصـلٍ منأشـا

---

(١) في الأصل: أخطأ ناسًا.

(٢) الذي في الطبري: تمنى نئيشًا.

(٣) كتب بهامش النسخة بخط مغاير: تمنى نبيشًا.

يقول لم تطلبه في أوله وأنشدته:

تَنَاءتْ عنكُم عُدُسُ بنُ زَيدٍ ... فَلَمْ يَعرِفْكُم إلا نُبَيشًا

يريد إلا خيرًا فقال لي: فلعل الوراق أخطأ عليه؟ قلت: لا، ولكن الطبري رأى نبيشًا في كتاب، ولم يدر ما هو فظنه حبيشًا، اسم رجل، وهذا الشعر لنهشل بن جزي[1] النهشلي، وهو في الخزانة، فوجه فطلبه فلم يجده، فقلت له: وهذا أيضا عجب يتحدث الناس بأن سيدنا مع جلالة علمه وعلو نعمته- عمل خزانة كتب كما عمل متقدمو الخلفاء، طلب فيها شعر هذا الشاعر المشهور فلم يوجد، قال: فما الحيلة وقد شغلنا بغيرها عنها؟ قلت: كتب عبيدك لك فتبتدئ في عمل الأشعار من الخزانة، تبدأ بمضر ثم ربيعة ثم اليمن، فما لم يكن فيها حملة عبيدك من كتبهم وما كان سماعا لعبيدك أو شيئا لا يعتاضون منه نسخه وراقوك الذين تجرى عليهم، وجلّده مجلدو الخزانة، فسكت كالمفكر فقلت له: إن الذي قلته ليس لشيء أجتلبه إنما هو حيف على كتبي ولكني آنف أن يتحدث الناس بشيء يفعله سيدنا لا يكون في نهاية الجلالة فقال ويحك فإذا جاء ما يشغل كيف نصنع؟ قلت: يجعل سيدنا هذه الخزانة للأميرين ويقتصر على ما يريد النظر فيه قال: أما هذا نعم فأمر بإخراج الكتب إليه يومًا يومًا، وأجلسنا فميزناها وقسمها بين يديه بين ابنيه واقتصر على ما أراد ووهب لنا الباقي فاقتسمناه وكان أكثره ما يباع وزنا.

تفسير الأبيات

النشر هو أن يجرب البعير فيبرأ غير برأ تام وتبقى بقية من جربه؛ أي: قليل فينبت وبره عليه، فيكون ظاهره برء وباطنه سقم، يريد الشاعر، وكذلك نحن

---

(١) في الطبري: حري.

ظاهرنا جميل وصلح وباطننا شر وحقد ونحوه :

وقد ينبتُ المَرعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وتَبقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا

وهو النشر بفتح الشين، وإنما يسكنها الشاعر لضرورة الشعر ثم لم يرضَ حتى سأل القاضي عن هذا؟ فقال: رواه الطبري على خطأ والصولي كثير السماع، فمن هذا لا يحكي إلا صوابًا: حدثني القاضي بذلك، وقال لنا الراضي بالله: كأني بالناس يقولون: أرضي هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي، حتى يتحكم في المال ويتفرد بالتدبير، ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلي، وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي، فسلمت إلى ساجية وحجرية يتسحبون علي ويجلسون في اليوم مرات، ويقصدونني ليلا ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه، وأن يكون له بيت مال وكنت أتوقى الذماء في ترك الحيلة عليهم إلى أن كفاني الله أمرهم، ثم دبر الأمر ابن رائق فدبره أشد تسحبا في باب المال منهم، وانفرد بشربه ولهوه، ولو بلغه وبلغ الذين قبله أن علي فرسخ منهم فرسانا قد أخذوا الأموال واجتاحوا الناس، فقيل لهم: أخرجوا إليهم فرسخا لطلبوا المال وطالبوا بالاستحقاق، وربما أخذوه ولم يبرحوا، ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية، بل على أسبابي، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل، وأكثر ما فيه أن يسألني فيه كلب من كلابهم فلا أملك رده وإن رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا، فلما جاء هذا الغلام جاء من لا يقول لي صنعتك أو أجلستك كما كانوا يقولون، بل اجترأنا عليه بالاصطناع، ووجدته إن تعدى أحد من أصحابه لم يرضَ إلا بقتله والمبالغة في عقوبته، وإن بلغه أن عد وقد تحول في ناحية نهض إليه فسبق خبره من غير اعتسافٍ لي بطلب مال ولا تلبث لوفاء استحقاق فرضيت ضرورة به، وكان أوفق لي وأحب إلي ممن قبله وكان الأجود أن يكون الأمر كله لي كما كان لمن مضى قبلي، ولكن لم يجر القضاء بهذا لي!

وكان دعا بجكم مرات، ما منها مرة إلا وهو ينفق عليه في خلعه، وما يحمله معه عشرون ألف دينار، وزيادة عليها من صواني ذهب وفضة وعنبر وند ومسك وكافور وبللور.

وعلم أن عادته في داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءه حتى يذوقه بين يديه الذي جاء به يصب منه في إناء معه فيشربه ثم يناوله إياه، فكان يستعمل الراضي معه هذا إذا حمل إليه لون وضع بين يدي الراضي أولًا فأكل منه، ثم وضع بين يدي بجكم، وكذلك النبيذ وجميع ما يوضع بين يديه، وكان يستعفيه من هذا فلا يعفيه.

ولقد قبل في آخر دعوة دعاه فخذه ويده فضمه الراضي إليه، وأخرج من إصبعه خاتمين فوضعهما في إصبعه، أحدهما يشبه الجبل في حمرته وكبره، فنظر ابن حمدون إليَّ ونظرت إليه واغتممنا أن يكون الجبل في يد غيره ففطن لنا، فلما انصرف بجكم قال لنا: قد رأيت نظركما وقت الخاتم وأحسبكما ظننتماه الجبل ليس به، ولكنه أقرب فص في الدنيا شبهًا به.

ولقد قال لي بجكم بعد موت الراضي، وأنا معه بواسط، وعلى رأسه من خدم الراضي جماعة: إن هؤلاء حدثوني أن الراضي أراد أن يقبض علي في بعض دعواته، أفكان كذا؟ فقلت له: الأمير يعلم أن الراضي لا يرجى في هذا الوقت ولا يخاف، وبالله ما استبنا منه ذلك في حال صحوه ولا سكره ولا جده ولا هزله.

وما كان إلا محبًّا للأمير مغتبطًا به، ولقد كان يتصنع في مدح ابن رائق حين كرهه، ويقرظه ويصفه فما كان يخفى علينا ضميره فيه هذا من قبل أن يظهر لنا ما في نفسه عليه، فقال لي: صدقت والله وكذب هؤلاء، وما يدريهم؟ كان الأمر عندي كما قلت ثم حدثته بما قد ذكرته من قول الراضي: «أنا أعلم أن الناس

يقولون... ».

فضحك وقال: ما كان إلا نهاية في عقله ودهائه وملقه؛ يريد بجكم هذه وإن لم يلفظ بهذا اللفظ، ولكني أعتب عليه بأنه كان شديد الجبن يؤثر لذته وشهوته على رأيه.

فعجبت والله من عقل بجكم، جاء والله بعيبيه اللذين ما كان فيه غيرهما، ثم حدثته أنا كنا نقف على مكاتبته الأمير سرًّا ليأذن له في المصير إلى بغداد ويشكو إليه ما كان يجري عليه من ابن رائق فيكتب إليه: «عليك بالوفاء لمن اصطنعك، وأحسن إليك».

إلى أن كتب إليه الأمير: «أعوذ بالله أن يكون مولاي يريد قتلي كما يريده ابن رائق؛ لأنه أعطاني جيشًا بمال معلوم ثم لم يوفني استحقاقهم، وهذا يبقى على دمي». وأنه لما ورد عليه كتاب الأمير بهذا كتب إليه: «والله ما أحب أن يتأذى بشيء أقل جندك وأتباعك لموضعك عندي، وما يستحقه شجاعتك ومناصحتك، فكيف أحب ما ذكرته فيك، وإذ صار الأمر إلى هذا، وجعلت وصيتي لك بالتمسك بالوفاء وحسن العهد سببًا لزوال أمرك فما أحب هذا، افعل ما يصلحك».

فلما قرأ الأمير هذا الكتاب أقبل إلى بغداد، فقال: كان كذا والله ماجئت حتى جاءني هذا الكتاب، قلت: ثم وقفنا في وقت من الأوقات أن الأمير اتهمه بأنه كاتب في أمره بعض من يصلح للمكاتبة في مثله، وأن ذلك اتصل به فوجه إلى الأمير:

«قد علمت الحال التي كنت عليها لابن رائق في كراهتي له في آخر أيامه، وما أجرى إليه مما يستوجب به إزالة أمره ومكاتبتك لي بما كاتبت، فإن كنت مع تلك الحال أذنت لك في مكروهه، أو تغير عليه مع سخطي وغضبي فإني

سأكاتب فيك على بعد ما بينكما، وأنا في هذا الوقت مغتبط بك راض بجميع فعلك وأمرك» فضحك بجكم فقال: كذا كان، وأزال هذا جميع ما بقلبي مما توهمته، وعلمت أنه صادق فيه.

قال الصولي: وما رأيت الراضي يقرظ أحدًا تقريظه الأمير أبا بكر محمد بن طغج، فإنه كان يصفه ويرضى جميع ما هو عليه، وإذا جاءته هدية من قبله استحسن جميعها وفرق علينا منها، وكان يقول إذا ذكره: «رجل كبير العقل حسن الطاعة، يشبه أجلاء الموالي الماضين، وما أدري بما أكافئه» ثم أمر فكتبت عنه كتبًا بأنه قد سماه الأخشاذ، وأمره أن يسميه به جميع الناس.

ولما جاءته هديته في آخر أيامه التي كان فيها الخدم الذين يغنون ويرقصون قال: «لقد خصني بما لم يملك مثله خليفة قط -وكان ربما قال بغير حضرة من لا يثق به- لو كان مثله عندي وكان جيشه مكان هذا الجيش! فإنه أشبه بجيش آبائي، وأشد تمسكًا بطاعتي».

ولقد ذكره يومًا فقرظه ووصفه، وكان قد تغير لابن رائق تغيرًا أبداه لي وللعروضي حتى يقرئنا رقاعًا له إليه وجواباته له، وربما أقرأنا أهاجي قد هجاه بها.

فقال بعقب وصفه للأمير الأخشاذ وذمه لمن ذم: كيف كنت حدثتني عن عمارة بن عقيل مع خالد بن يزيد الشيباني، وتميم بن خزيمة بن خازم التميمي؟

فقلت له: حدثني القاسم بن إسماعيل أن عمارة حدثه: أنه أضاق فصار إلى تميم بن خزيمة وهو تميمي من رهطه، فسأله فاعتل فجاء إلى خالد بن يزيد الشيباني وهو من ربيعة بعيد النسب منه، فسأله فأعطاه وأكرمه واعتذر إليه، فقال عمارة يفضل خالدًا عليه:

أَأَتْـرُكُ إِنْ قَلَّـتْ دَرَاهِـمُ خَالِـدٍ زِيَارَتَـهُ إِنِّي إِذًا لَمُلِـيم

فَلَيْتَ بِنُوَيْبِهِ لَنَا كَانَ خَالِدٌ ... وَكَانَ لِبَكْرٍ بِالثَّرَاءِ تَمِيمُ
فَيُصْبِحُ فِي قَوْمِي أَغَرُّ مُحَجَّلٌ ... وَيُصْبِحُ فِي بَكْرٍ أَغَمُّ بَهِيمُ

ولعمارة أهاج في تميم ومدح لخالد بن يزيد كثيرًا.

فقال لي الراضي لما سمع هذا: «فليت!» يريد فليت لي الأخشاذ بابن رائق، وهذا ظريف مما كان يقوله ولكنه ينبئ عن جميعه، وكذلك صنعت في أشياء اختصرتها لئلا يطول الكتاب بها.

ولم يزل الراضي ذكيًّا عاقلًا مذ كان صبيًّا؛ قرأ يومًا أبياتًا من الشعر في الغزل، فقال لي اعمل في نحوها فعملت:

يَا مَلِيحَ الدَّلَالِ رِفْقًا بِصَبٍّ ... يَشْتَكِي مِنْكَ جَفْوَةً وَمَلَالَا
نَطَقَ السُّقْمُ بِالَّذِي كَانَ يُخْفِي ... فَسَلِ الجِسْمَ إِنْ أَرَدْتَ سُؤَالَا
قَدْ أَتَاهُ فِي النَّوْمِ مِنْكَ خَيَالٌ ... فَرَآهُ كَمَا اشْتَهَيْتَ خَيَالَا
يَتَحَامَاهُ لِلضَّنَى أَلْسُنُ العَذْ ... لِ فَأَضْحَى لَا يَعْرِفُ العُذَّالَا

فقال لي: سأعمل في نحوها، فتنحى وأخذ دواة وعمل بحضرتي:

قَلْبِيَ لَا يَقْبَلُ المِحَالَا ... وَأَنْتَ لَا تَبْذُلُ الوِصَالَا
ضَلَلْتُ فِي حُبِّكُمْ فَحَسْبِي ... حَتَّى مَتَى أَتْبَعُ الضَّلَالَا
قَدْ زَارَنِي مِنْكُمْ خَيَالٌ ... فَزُرْتُ إِذْ زَارَنِي خَيَالَا
رَأَى خَيَالًا عَلَى فِرَاشِي ... وَمَا أُرَاهُ رَأَى خَيَالَا

فلحن هذا الشعر بعض الطنبوريين، وغنى فيه فحدثه يومًا مضحك كان يدخل إليه، أنه حضر مجلسًا غنى فيه بهذا الشعر، فقال هو: هذا لسيدنا الأمير.

فقال كاتب كان في المجلس: هو لفظ الصولي وشعره فحلفت على ذلك فأقام على قوله.

فقال له: «عرفني هذا الكاتب» فظن أنه يريد سوءًا فيه، فقال: «لعلك وهمت أني غضبت من قوله، لا والله، ولكني استحسنت علمه بالشعر؛ لأن الصولي علمني الشعر وأنا أتبع ألفاظه وأنحو مذهبه» فلما قال هذا ما قال وهو لا يعرف حقيقة أمري علمت أنه لم يقل هذا إلا عن علم بالشعر، فأحببت بذلك أن أحسن إليه، إذ كانت فيه هذه الفضيلة، فعجبت من حسن عقله وتمييزه.

وكنا يومًا بين يدي الراضي وهو يشرب، فلغط الجلساء، فجذب الدواة والدرج وكتب فيه شيئًا وناولنيه فإذا فيه:

لما بَرِمْتُ بِراحِي وانْقَضَى الأَدَبُ ... قَرَنْتُهَا بِأُنَاسٍ شَأْنُهُمْ إِرَبُ

تَرَاهُمُ الدَّهْرَ لاَ يَرْوُونَ مِن لغطٍ ... عَلَى المُدام فَلا التَّذُّوا وَلاَ شَرِبُوا

ولم يزل الراضي نحو سنتين من خلافته، لا يشرب النبيذ ونشربه نحن بين يديه، وربما شرب الجلاب وأنا مصوب له ذلك، مساعد عليه حتى أغواه أصحابنا فقال: «إني أعطيت الله عهدًا ألا أشربه أبدًا».

وكتب رقعة بلفظه بيمينه وعرضها على الفقهاء، فوجد رخصة، فوجه بألف دينار إلي لأتصدق بها عنه وشرب. وقال لي يومًا أنشدني تشبيب قصيدتك البائية في ابن فرات، فإنه عندي أحسن تشبيب سمعته قط فأنشدته:

سَيِّدِي أَنْتَ إِنَّنِي بِكَ صَبٌّ ... بَيْنَ أَيدِي الهُمُومِ وَالشَّوْقِ نَهْبُ

وشَفِيعِي إِلَيْكَ أَنِّي مُحِبٌّ ... وَقَدِيمًا أَحِبَّ مَنْ لاَ يُحِبُّ

بَعَثَ الحُبُّ لِي سَقَامًا فَأَعْدَى ... بِيَ حُزْنًا مُدَاوِمًا مَا يَغِبُّ

لَيْسَ لِي نِيَّةٌ أُسَلِّي بِهَا النَّفْـ ... ـسَ لِمَا قَدْ رَأَى وَلَا لِيَ قَلْبُ

ضَاعَ صَبْرِي وَأَخْلَفَتْنِي ظُنُونٌ ... كَاذِبَاتٌ يَلَذُّهَا مَنْ يَصَبُّ

غَيْرَ أَنِّي أُرِحْتُ مِنْ قَوْلِ لَاحٍ ... هُوَ هَمٌّ عَلَى الفُؤَادِ وَكَرْبُ

عَذَلَ العَاذِلُونَ فِيكَ وقَالُوا ... مَا عَلَى مَنْ أَحَبَّ مثلَكَ عَتْبُ

لَكَ خَدٌّ مُوَرَّدُ اللَّوْنِ سَهْلٌ ... وَفَمٌ طَيِّبُ المُجَاجَةِ عَذْبُ

وجَبِينٌ تَلَأْلَأَ الحُسْنُ فيهِ ... كهِلَالٍ تكَشَّفَتْ عَنْهُ حُجْبِ

وجَفُونٌ مُفَتَّرَاتٌ مِرَاضٌ ... وحَدِيثُ المُؤَنَّثِ اللَّفْظِ رَطْبُ

وقَوَامٌ للرِّيحِ فيهِ احْتِكَارٌ ... يَتَثَنَّى تثني الغُصْنِ شَطْبُ

أَخْصَبَ الحُسْنُ فِي جميعِكَ إلاَّ ... أَنَّ حظِّي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ جَدْبُ

هُفَ نفسي عَلَيْكَ لو أَنْصَفَ الحُـ ... ـسب لَذَلَّ الغَدَاةَ لِي منْكَ صَعْبُ

لا أُسَمِّيكَ خيفَةً بلْ أَعِدِّي ... عنكَ طَرْفًا دُمُوعُهُ فيكَ سَكْبُ

وعَدَدْتَ الهَوَى عَلَيَّ ذُنوبًا ... إِنْ يَكُنْ ذَا فَحُسْنُ وجهِكَ ذَنْبُ

أيمرُّ الزمانُ صَفْحًا عَلَيْنَا ... لَمْ يُنَلْ طائلٌ ولم يُقْضَ نَحْبُ

ظَلَمَتْنِي كظُلْمِكَ السِّنُّ حَتَّى ... شَابَ رَأْسِي ودَعْوَةُ الشَّيْبِ سَبُّ

سَلَبَتْنِي ثَوْبَ الشَّبابِ الثَّلَاثُو ... نَ وللشَّيْبِ بَعْدَ ذَلِكَ سَلْبُ

وأحالَتْ دُهْمًا عَلَى الرَّأْسِ شُهْبًا ... لَيْسَ يَجْرِي بِخَيْلِهِ اللَّهْوُ شُهْبُ

إِنْ يَكُنْ سَارَ عَامِدًا لِدِمَشْقٍ ... وطَوَانِي كَمَا طَوَى الشَّمْسَ غَرْبُ

فهوَ للْقَلْبِ حيثُ ما مالَ ذِكْرٌ ... وهُوَ للطَّرْفِ حيثُ ما دار نُصْبُ

حُسْنُ رَأْيِ الوَزِيرِ عَوَّضَ فيهِ ... فَهُوَ للْجُودِ والمَكَارِمِ رَبُّ

وهي طويلة فجلس طويلًا، ثم أنشدني ما عمل ولم يقطعه بعد، فإذا هو:

أُشْـهِدُ اللهَ أَنَّنِـي بِـكَ صَـبٌّ ... لِفُـؤَادِي مِـن شِـدَّةِ الوَجْـدِ وَجْـبُ
حـارَ فِي الجِسْمِ يَـوْمَ ودَّعْـتَ دَمْـعٌ ... فـاضَ مِنْـهُ مَـعَ التَّسَتُّرِ غَـرْبُ
يـا عَلِـيلًا فَدَتْـهُ مِنِّـيَ نَفْـسٌ ... بَـيْنَ أَيْـدِي الإِشْـفاقِ والشَّوْقِ نَهْـبُ
سَـلَبَ القَلْـبَ وَالمُنَـى وَافـدُ السُّـ ... ـنِّ وقَـدْ كـانَ قَبْلَـهُ لِيَ قَلْـبُ
إِنْ أَمِنْـهُ فِي هَـواكَ قـالمَوْتُ دائِـي ... أَنْـتَ فِي البُعْـدِ لِلَّـواحِظِ نُـصْبُ
فَوَقَتْـكَ الـرَّدَى حُـشَاشَةُ نَفْـسٍ ... لَمْ يَجِرْهـا مِـنَ التَّبَاعُـدِ قُـرْبُ

ثم قال لي: قد أغرت عليك، فقلت له: إن رأى سيدي أن ينعم على ويقطع علمه لهذا الأبيات، ففعل. ثم قال لي بعد: عرفني بما أردت بقطعي الأبيات؟ قلت: إن أبياتي جهدت نفسي حتى جاء تشبيهها كما وصفه سيدنا، وترتجل أبياتًا فينشدها الناس معها فيرون أبياتي أجود، وما أحب أن يرى الناس لعبد شيئًا أفضل مما يملكه مولاه من أشباهه.

وحدثني الراضي قال لما قتل القاهر مؤنسًا وبليق وابن بليق أنفذ رءوسهم إلي مع الخدم يهددوني بذلك وأنا في حبسه؛ لأني كنت في حجر مؤنس، ففطنت لما أراد وقلت ليست إلا مغالطته، فسجدت شكرًا لله، وأظهرت للخدم من السرور ما حملهم على أن جعلوا التهديد بشارة، وجعلت أشكره وأدعو له فرجعوا بذلك وكتبت إليه:

بَقِيـتَ أَمِـيرَ المُـؤْمنينَ عَـلَى الـدَّهْرِ ... بِـرَغْمِ الأَعـادِي نافِـذَ النَّهْـى والأَمْـرِ
شَـفَيْتَ غَلِـيلًا كَـانَ لَـوْلاكَ قـاتِلًا ... وخَفَّفْتَ هَمًّا ضَـاقَ عَـنْ حَمْلِـهِ صَـدْرِي
وقُمْـتَ بحـقِّ اللهِ فِي قَتْـلِ مَعْـشَرٍ ... سَـعَوْا فِي الْـبِلادِ بالفَسَـادِ وبـالكُفْرِ

وَتَـأْرِ أَخٍ سَـادَ الأَنَـامَ وَلَمْ تَكُـنْ ... لِتَغْفُـلَ عَـنْ ثَـأْرٍ عِـرَاكٍ وَلاَ دَثْـرِ
وَلَـسْتَ بِلَيْـثٍ أَفْلَتَتْـهُ فَرِيـسَةٌ ... وَقَـدْ عَلِقَـتْ بِالنَّـابِ مِنْـهُ وَبِـالظُّفْرِ
وَلاَ حَيَّـةٍ يَنْجُـو بِنَفْـثٍ لَـدِيغُهَا ... وَلاَ صَـارِمٍ يَهْـوِي لِـضَرْبٍ وَلاَ يَـبْرِي
فَعِـشْتَ لِـدِينِ اللهِ تَجْـبُرُ وَهْنَـهُ ... وَبُلِّغْـتَ أَقْـصَى مَـا هَوِيـتَ مِـنَ الْعُمْـرِ
وَيَـا لَيْتَنِـي أُسْـعِدتُ فِيـكَ بِنَظْـرَةٍ ... أُوَفِّي بِهَـا حَـقَّ الْمَحَامِـدِ وَالـشُّكْرِ

فلما قرأها دعاني فقال ما شفيتك، فأظهرت السرور وأكثرت الدعاء فنفعني والله ذلك عنده، وحال عما أراده بي إلى غيره.

وكان الراضي وعدني وهو أمير أن يشرب ليلة، وأنا أحتال في المصير إليه سرًّا، فصرت إلى داره بالمخرم ليلًا فلم أصل، واشتغل بزائر زاره فلم يشرب، وكتب إلي من الغد:

وَلَيْلَـةٍ مِـنْ سَـيِّئَاتِ الـدَّهْرِ ... تَوَقَّـدَ الـشَّوْقُ بِهَـا فِي صَـدْرِي
تَوَقُّـدَ النَّـارِ بِـذَاكِي الْجَمْـرِ ... أُنْـسِيتُ مَـا أَشْرَبُـهُ لِـذِكْرِي
مُغْـرًى بِنِـسْيَانِي وَطُـولِ هَجْـرِي ... ذَا سَـطْوَةٍ وَنَخْـوَةٍ وَكِـبْرِ
وَقُـدْرَةٍ يَجْهَـلُ فِيهَـا قَـدْرِي ... ثُـمَّ أَتَـى مُـزْوَرَّةً بِالْعُـذْرِ
أَفْدِيـهِ مِـنْ وَافٍ وَمِـنْ ذِي غَـدْرِ ... يَبْخَـلُ عَنِّـي بِقَلِيـلٍ نَـزْرِ
فَاعْـذِرْ فَهَـذَا خَـبَرِي وَأَمْـرِي ... مَتَـى أَرَى سِرِّي يَجُـثُّ جَهْـرِي
بِوَصْـلِ بَـدْرٍ فَاضِـحٍ لِلْبَـدْرِ ... يُـسْكِرُنِي بِـاللَّحْظِ قَبْـلَ سُـكْرِي
يَـا طَالِبًـا قَـتْلِي لِغَـيْرِ وَتْـرِ ... يَهْنِيـكَ هَجْـرٌ مِنْـكَ يُفْنِـي عُمْـرِي

ولما هزم بجكم لابن رائق وخرج إلى الشام، وصار أميرًا مكانه دعاني

الراضي فأنشدني:

أَبْعَدَ مَا قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ ... مُحَارِبًا لِخُطُوبٍ حُكْمُهَا جَارِي

وَفَلَّقَتْ حِيَلِي هَامَ الرِّجَالِ أُرَى ... والغَيْبُ يُخْمِدُ مَا أَذْكَيْتُ مِنْ نَارِ

صَمِمْتُ عَنْ صَبَوَاتٍ يَسْتَجِيبُ لَهَا ... نَاسٌ بِأَوْتَارِ لَهْوٍ ثَأْرُ أَوْتَارِ

وَفَلَّ لَذَّاتِ لَهْوِي جَيْشُ عَارِفَتِي ... وَقَلَّمَ العَزْمُ مِنِّي نَقْرَ أَوْتَارِي

حَتَّى رَحَضْتُ بِتَحْرِيضِي العَدُوَّ عَلَى ... قَتْلِ العَدُوِّ يُثَابُ الذُّلُّ وَالعَارِ

كَذَاكَ مِنْ تُنْهِضُ السَّادَاتُ هِمَّتَهُ ... لاَ يُغْمِضُ العَيْنَ مَغْلُوبًا عَلَى ثَارِ

وَرُبَّ خَطْبٍ دَجَا ذَلَّ الجِبَانُ لَهُ ... وَقَدَ فَرَاه بِأَنْيَابٍ وَأَظْفَارِ

لَمْ يَخْتَلِكْ لَيْلُهُ حَتَّى صَدَعْتُ لَهُ ... صُبْحًا مِنَ الرَّأْيِ لا يَعْشَى بِهِ السَّارِي

فَقُلْ لِمَنْ يُلْهِبُ الإِهْمَالُ غُرَّتَهُ ... اسْتَغْنِ عَنْ صِدْقِ إِيقَاعٍ بِإِنْذَارِ

وَلاَ تُمِرَّنَّ حَبْلًا لِلْخِلاَفِ فَقَدْ ... رأيتَ نَقْضِي وَإِحْكَامِي لإِمْرَارِي

لا تَبْسُطَنَّ رِمَاحًا لاَ زِجَاجَ لَهَا ... إِلَى سُيُوفٍ مُطِيحَاتٍ بِأَعْمَارِ

فَإِنَّهَا حِينَ تُدْنِيهَا لِلْحَمَةٍ ... تَرِي بِكُلِّ رَقِيقِ الحَدِّ بَتَّارِ

وَعِشْ بِنِيَّةِ صِدْقٍ تَسْتَدِرُّ بِهَا ... رَسْلَ الحَيَاةِ بِعُرْفٍ لاَ بِإِنْكَارِ

أَوْ فَاسْحَبَنَّ ذُيُولَ الذُّلِّ مُقْتَسِرًا ... وَانْظُرْ بِطَرْفٍ خَفِيِّ اللَّحْظِ غَدَّارِ

لاَ يُحْرِمُ المَرْءُ فِي وِرْدٍ يُحَاوِلُهُ ... حَتَّى يُوَجَّهَ فِيهِ وَجْهَ إِصْدَارِ

ثم قال لي كيف تراه؟ فحلفت أنه ما قال في جودته خليفة قط؛ ولكن فيه شيء يغيره، قال: وما هو؟ قلت قولك:

حتى رحضت بتحريضي العدو على ... قتل العدو ... ...

اجعله بتحريضي الولي على قتل العدو، فقال: صدقت والله، خرج الكلام على ما في نفسي فغيَّره! فقال: إنما عنيت ذهاب الساجية والحجرية بابن رائق، قلت: أخاف أن يتأول أنه لبجكم وابن رائق لأنك عملته بعقب أمرهما، :قال صدقت وكنت عملت أبياتًا على قافية الشين:

غَشِيَتْنِي مِنَ الهُمُومِ غَواشِ ... لِعَذُولٍ يَلُومُ فِيكَ ووَاشِ

لَوْ يُلاَقُوا الَّذِي لَقِيتُ مِن الْوَجْـ ... ـدِ لِشَوْقٍ بَيْنَ الجَوانِحِ نَاشِ

نَمَّ بِالسِّرِّ عِنْدُهُمْ دَمْعُ عَيْنِي ... إِنَّ سِرَّ المُحِبِّ بِالدَّمْعِ فَاشِي

مَنْ عَذِيرِي لظَالِمٍ أَنَا مِنْهُ ... فِي زَمَانِ الوصَالِ لِلْهَجْرِ خَاشِي

أَخَذَ الْقَدَّ مَنْ قَضِيبٍ رَطِيبٍ ... وحكى أَعْيُنَ الظِّبَاءِ العِطَاشِ

فأنشدتها الراضي في إمارته، فعمل في قافيتها ومعناها:

نَحُولُ الْجِسْمِ مِنْ وَاشٍ ... وَدَمْعِي لِلْهَوَى فَاشِي

لأَنِّي فِي زَمَانِ الْوَصْـ ... ـلِ مِنْ هَجْرِكِ لِي خَاشِي

لإِصْغَارِكَ لِلشَّكْوَى ... وَإِصْغَائِكَ لِلْوَاشِي

فَأَوْحَشْتَ بِإِدْنَاءٍ ... وَآنَسْتَ بِإِيحَاشِ

عَرانِي سَقْمٌ نَاشٍ ... بِهَجْرٍ مِنْكُمُ نَاشِي

وعملت أيضًا:

حُبٌّ لأَحْمَدَ قَدْ فَشَا ... بَيْنَ الْجَوانِحِ والْحَشَا

يَهْتَزُّ فِي حَرَكَاتِهِ ... مِثْلَ الْقَضِيبِ إِذَا مَشَا

خَدَّاهُ مِنْ بَرَدِ الدُّجَا ... وَالْمُقْلَتَانِ مِنَ الرَّشَا

لَمَّا ظَفِرْتُ بِوَصْلِهِ ... وَمَلَكْتُ مِنْهُ مَا اشْتَهَا
أَحْلَى الْبَرِيَّةِ أَوْ عَلَى ... عَيْنِ الَّذِي يَهْوَى غِشَا
وتَنَاوَمَتْ عَيْنُ الرَّقِيـ ... ـبِ لَحَتْ أَقْدَاحِ الْوِشَا
وفَشَا الْحَدِيثُ بِحُبِّنَا ... والْحُبُّ يَحْسُنُ إِنْ فَشَا
عَبَثَ الْوُشَاةُ بِوَصْلِنَا ... حَسَدًا فَقُبِّحَ مَنْ وَشَا

فعمل هو:

أَفْرَحَ الْقَلْبَ والحَشَا ... مُفْتِنٌ لَحْظُهُ رَشَا
مَلَكَ الجِسْمَ حُبُّهُ ... فَبراهُ كَمَا يَشَا
لا يُجَازَى عَلَى الوِصَا ... لِ وَلاَ يَقْبَلُ الرِّشَا
شِئْتُ أَنْ يَرْحَمَ المُحِـ ... ـبَّ وَهَيْهَاتَ مَا أَشَا
يَا هِلاَلًا إِذَا بَدا ... وقَضِيبًا إِذَا مَشَى
افْشِ وَصْلًا فَإِنَّ هَجْـ ... ـرَكَ لاَ كَانَ قَدْ فَشَا

وكان الراضي بالله وصلنا وهو في الزبيدية، وأقام بها أياما وعملت له فيه قرية كما يعمل للملوك، أنفق عليها مالًا، ثم فرقها علينا ووهب لنا ثيابًا. فلما عبر بلغه أن الناس تكلموا في إعطائه لنا وإسرافه في أمرنا فقال:

لاَ تَعْذِلِي كَرَمِي عَلَى الإِسْرافِ ... رِبْحُ المَحامِدِ مَتْجَرُ الأَشْرافِ
أَجْرِي كآبائِي الخَلاَئِفِ سَابِقًا ... وأَشِيدُ مَا قَدْ أَسَّسَتْ أَسْلاَفِي
إِنِّي مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ ... مُعْتَادَةُ الإِخْلافِ والإِتْلافِ

ولما ملك بجكم واسط في آخر خروجه إليها وفعل بابن رايق ما فعل

وقتل، أنشدني الراضي:

ياعُمْدَةَ السُّلْطَانِ	وَلَيْتَ هَذا الزَّمانِ
ومُشْتَرِي الحَمْدَ مِنِّي	بِأَوْفَرِ الأَثْمَانِ
فَكَكْتَ أَسْرِيَ مِنْ	كَفٍّ طارِقِ الحَدَثَانِ
فَصِرْتُ أَسْبَقُ جَرْيًا	وقَدْ مَلَكْتُ عِنانِي
فأَنْتَ حَرْبٌ عَدُوِيٌّ	وسَلْمُ مَنْ وَالانِي
والسَّيْفُ مِثْلُ لِسَانِي	إِذَا تَعَايَا لِسَانِي
تَسُرُّنِي كُلَّ وَقْتٍ	فِي غَيْبَةٍ وعِيَانِ
فَشُكْرُكَ الدَّهْرَ لاَ شُكْـ	ـرُ غَيْرِكَ شَانِي

ومن كرم الراضي وشريف أخلاقه أن ابن حمدون كان يباري علي بن هارون المنجم في الشرب بين يديه، وإذا شرب أحدهما خماسية قبل صاحبه رفعها ليراها الراضي، ففعل ذلك مرارًا كثيرًا إلى أن ضجر الراضي فقال: كأنها قوارير بول ترفع بين يدي طبيب، وهو مع ذلك لحلمه وكرمه يضحك لما يفعلانه ويثيب عليه إلى أن فعلا ذلك يومًا فقال لهما وقد تلاحيا: لا عليكما الأمر عندي سواء في فعل جميعكم من زاد في شربه فإنما فعل ذلك سرورًا بنا ونشاطًا لمجلسنا، وإنما بقي على نفسه لخدمتنا، وأحب به مطاولتنا فقبَّلنا الأرض بين يديه، وحلفنا أنه ما جلس مجلسًا أكرم عشرة منه لعبيده، وأقبلنا عليهما فقلنا: أبقي لكما الآن شيء بعد هذا فقصرا عن كثير فعلهما ذلك مما تركاه في وقت.

ومن كرمه أنه كان كلما أراد الشرب وضعت بين أيدينا صوان فيها خماسيات مطبوخ ومغاسل وكيزان ماء ليشرب كل واحد منا ما يريد، ولم يكن

يفعل ذلك الخلفاء إلا خصوصًا بالواحد بعد الواحد، وبالجماعة في وقت من الدهر. وإن كان الخدم الشرابية يجيئون بالأقداح فيناولونها الجلساء فيشربونها ويردونها عليهم، وربما أرادوا من الخدم ماء لأقداحهم فيما كسونهم فيه، وكان يأمر بأن يوضع بين أيدينا الفواكه الرطبة واليابسة فننال منها كما ننال في بيوتنا، وما كانت الخلفاء تفعل بجلسائها ذلك إلا في الحين إن فعلوه.

وكان كثيرًا يقول لكرمه ووفائه ومحبته أن يؤكل طعامه: أمر النبيذ إليكم اشربوا ما شئتم، وأمر الأكل إلي لا بد من مطالبتكم به حتى تأكلوا معي، ويمدح من يزيد أكله بين يديه وينفعه ذلك عنده.

ولقد تعشينا ليلة بين يديه فجاءونا بخبز سميذ كبار ما رأينا أحسن مما خبز، فعزل العروضي رغيفًا وقال: نوبتي في غد في بيتي، وقد استحسنت هذا الرغيف وأريد أكله في غد فاستبنت أنه قد سر لما فعل العروضي.

وجاءت جامات فيها بوارد فعزلت جامًا وقلت: ما ذقت والله أطيب من هذه الباردة وأنا كالشبعان، وأريد أن آكلها في غد مع العروضي فإنا شريكان، وفرغنا من الأكل وجلسنا ورفع الرغيف والجام، ثم وضع بين العروضي الرغيف بعينه وفوقه دراهم قد ملأته ووضع بين يديه جام فيه دراهم مثل ما في الرغيف فضج الجلساء لذلك وسألوا أن يفعل بهم مثل ذلك، فقال: إلا أن هذين استطابا طعامنا فأزلا منه لغد ما يقصر عن كفايتهما فأحببنا أن نتمم أمرهما بما فعلناه ولم يكن لكم سبب في مثل هذا فنفعل بكم كما فعلناه بهما. فانصرفنا ولم يأخذ أحد شيئًا غيرنا وأعطينا الرغيف والجام كما رفعا، فكان في الجام ألفا درهم وكذلك على الرغيف.

ولما ورد قتل ياقوت على الحجرية اضطربوا اضطرابًا شديدًا واجتمعوا إلى

الراضي بالله وقالوا: قبضت على ابنه أبي بكر لغير ذنب فحبسته، ثم قبضت على أخيه أبي الفتح ثم كتبت إلى ابن البريدي في قتله، فجلس لهم وأحضر القاضي، وأحضر معه من العدول أبا الحسن الهاشمي بن أم شيبان، وابن عمه عبد الوهاب، وجلس الراضي لهم ليلا. فدخلوا إليه وهو على كرسي، فلغطوا وكان الصغار أشد كلامًا وأبسط ألسنًا من كبارهم وقوادهم، فتركهم حتى تكلموا بكل ما أرادوه وأخرجوا ما في أنفسهم، ثم أقبل عليهم رابط الجأش ذرب اللسان فكلمهم أحسن كلام، وقال: إن كان هذا الأمر قد صح عندكم. فعرفوني من أي جهة صح لأعرفها كمعرفتكم؟ وإن كان ظنا فالظن يخطئ ويصيب، وإنما ظننتم هذا بمجيء أخي البريدي أبي الحسن إلى الديار هذه الأيام، وإنما كان يجيء بكتب أخيه يشكو معاملة ياقوت، ثم أخرج فصولًا من كتب، فدفعها إلى القاضي فقرأها عليهم، وفيها جوابات من ياقوت إلى ابن البريدي، وقد أنفذها ابن البريدي إليه، ثم قال له: ما قبلت في ابن البريدي إلا رأي محمد بن ياقوت، والآن فقد وقفتم على الخبر، وأنا أعزلهم وأنفذ الجيوش إليهم، وأخرج معكم إن أردتم، ثم كلمهم القاضي وفرقهم.

وكنت وهو أمير بعد اعتللت في يوم نوبتي عنده، فكتبت رقعة أعتذر فيها بالعلة لتخلفي عن خدمته فوقع إلى:

وَصَلَتْ رُقْعَةٌ فَأَوْصَلَت الْوَحْـ ـشَةَ لَمَّا أَتَتْ بِشَكْوَى الأَنِيسِ
بُدِّلَ الْقُرْبُ بِالبِعَادِ فَبُدِّلْـ ـتُ بِيَوْمِ السُّرُورِ عُبُوسِ

فكتبت الجواب:

وَصَلَتْ رُقْعَةُ الأَمِيرِ الرَّئِيسِ غُرَّةِ الدَّهْرِ وَالخَطِيرِ النَّفِيسِ
فَأَزَالَتْ مَا كُنْتُ أَشْكُو وَأَهْدَتْ لِي نَعِيمًا وَأَذْهَبَتْ كُلَّ بُوسِ

وَأَنَـــى الـــشِّعْرُ مُبْرِئًـــا وَشِـــفَاءً ... وَأَنِيـــسًا يَفُـــوقُ كُـــلَّ أَنِـــيسِ
حَـسَنَ اللَّفْـظِ مُطْرِبًـا كُـلَّ مَـنْ يَسْـ ... ـمَعُ إِطْـرَابَ زَابَـدات الْكُئُـوسِ
قَـدْ جَـلاَّهُ الطَّبْـعُ الْمُغَـاثُ بِحِـذْقٍ ... لِعُقُـولِ الْـوَرَى جِـلاَءَ الْعَـرُوسِ
أَضْـحَكَ اللهُ بِـالأَمِيرِ زَمَـانِي ... وَلَقَـدْ كَـانَ قَبْلَـهُ ذَا عُبُـوسِ
صِرْتُ مُـذْ قَـدَّرَ الإِلَـهُ جُلُـوسِي ... مَعَـهُ سَـيِّدًا لِكُـلِّ جَلِـيسِ
ضَـاقَ شُـكْرُ الْعُبَيْـدِ عَـنْ بِـرِّ مَـوْلًى ... مِثْـلَ ضِـيقِ الْغُفْـرَانِ عَـنْ إِبْلِـيسِ

وكنا يومًا نشرب بين يديه، فرأيت من ذكائه وسرعة خاطره ما جعلت أعجب منه؛ وذلك أنه سأل عن شِعر فقال أحمد بن يحيى: هو لدعبل: فقلت أنا: هو لمحمد بن الحجاج البغدادي فلاحاني، فقلت له: إن أقرب من أنشدناه لمحمد أبوك عن أبي هفان، وكان ذكره في كتبه فأمسك وضحك الراضي، وقال فأنشدنيه، فأنشدته وهو مقبل علي يسمع:

زَمَنِـي بِـمَا طَـابَ سُـقِيَت زَمَانَـا ... مَـا كُنْـتُ إِلاَّ رَوْضَـةً وَجِنَانَـا
أَصْـلَحْتَنِي بِـالْجُودِ بَـلْ أَفْـسَدْتَنِي ... وَتَرَكْتَنِـي أَتَـسَخَّطُ الإِحْـسَانَا
مَـنْ جَـادَ قَبْلَـكَ كَـانَ جُـودُكَ فَوْقَـهُ ... لَمْ أَرْضَ قَبْلَـكَ كَائِنًـا مَـنْ كَانَـا

وليس الشعر هكذا، إنما قال:

مَـن جَـاء بَعْـدَكَ كَـانَ جُـودُكَ فَوْقَـهُ ... لَم أَرْضَ بَعْـدَكَ كَائِنًـا مَـن كَانَـا

فلم استحسن أن أنشده بعدك في أول البيت وبعدك في آخره فأنشدته كما ذكرت، فقال: محمد بن يحيى الصولي يحيل الشعر إذا أنشده، ما كذا قيل، فقال له كيف الشعر فأنشده:

مـن جـاد بعـدك كـان جـودك فوقـه لم أرض بعـدك كائنـا مـن كانـا

ففطن أني قلبت اللفظ عمدًا لما فيه، وأن هذا مما لم يفطن له أحمد فقال له: تلك رواية الصولي، وهذه روايتك أنت، فقال: كذا والله يا سيدي قال الشاعر، وكذا أنشدني أبي، فقال له: قد علمت كما أنشدك أبوك أيضًا لنفسه إن كنتم قريشًا فمه! فسكت وانقطع الكلام.

وكان إذا ذكر أبيات يحيى بن علي هذه يشتد غيظه ويقول أقوالًا يسمعها سائر الجلساء، لا أحب ذكرها، ويسرني منه بأن يقول قد شفى القلوب ابن المعتز بجوابه.

وأنشدني يومًا العروضي جوابًا ليحيى في غير شعر عمله، أحسن والله في بعضه، ولكني لا أذكره للطعن الذي فيه.

واعتللت وهو أمير فتأخرت عن خدمته، والنوبة التي كانت علي فكتب إلي رقعة فيها:

يـا عَلِـيلًا جَعَـلَ الـسَّا عَـةَ إِذْ غَـابَ شُـهُورًا
ولَقَـدْ كَـانَ بِـهِ الـ ـدَّهْرُ إذ جَـاءَ قَـصيرًا
لِعُلُـومٍ لاَ أَرَى الـ ـدَّهْرَ لَـهُ فِيهَـا نَظِـيرًا
صَرَفُ اللهُ الأذَى عَنْـكَ ولقَّـاكَ سُرُورا

فكتبت الجواب:

يـا أَمِـيرًا مـا رَأَيْنَـا مِثْلَـهُ فَـضْلًا أَمِـيرًا
يـا أَبَـا الْعَبَّـاسِ يـا شَمْـ ـسًا ويـا بَـدْرًا مُنِـيرًا
يَـا كَبِـيرَ الْعَقْـلِ والْـ ـآدابِ مُـذْ كَـانَ صَـغِيرًا

والـــــذي نكـــــذب إن قـــسنا بـــه يومًـــا نطـــير
قـــد أتـــى عبـــدَكَ شِـــعْرٌ منـــكَ خَـــلاَّهُ حَـــسِيرَا
بَعْـــدَ سَـــبْقٍ مِـــنْ خَطَـــرِ الـــ ـــشُّعْرِ مَـــنْ كَـــانَ خَطِـــيرَا
حَـــسَنُ اللَّفْـــظِ يُحَـــاكِي رَصْـــفُهُ الـــدُّرَّ النَّثِـــيرَا
مَـــلأَ الجِـــسْمَ شِـــفَاءً وحَـــشَا القَلْـــبَ سُرُورَا
كَـــانَ مِـــنْ عَـــارِضِ شَكْـــ ـــوايَ وَمِـــنْ دَهْـــرِي مَجِـــيرَا
لَـــبْسَ مـــا يَـــذْخَرُهُ عِنْـــ ـــدِي مِـــنَ الـــشُّكْرِ يَـــسِيرَا
سَـــوْفَ أُهْـــدِي مِنْـــهُ رَوْضًـــا جَـــاوَرَتْ مِنْـــكَ غَـــدِيرَا
كَـــمْ عَـــسِيرٍ عَـــادَلِي مِـــنْ حُـــسْنِ نُعْـــمَاكَ يَـــسِيرَا
قَـــدْ يُـــرَى العَبْـــدُ وإنْ قَـــلَّ بِمَـــوْلاَهُ كَثِـــيرَا

سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

مات في المحرم منها إبراهيم بن خفيف، صاحب ديوان النفقات وتقلد موضعه محمد بن يحيى بن شيرزاد، وتقلد الزمام عليه سعيد بن عمرو بن سنكلا. وفي الشهر ظهر ابن خزابة بعد استتار، وصودر على مال كثير، وضج الناس من غلاء السعر، وكان الخبز قد صار إلى أربعة أرطال بدرهم، وأظهر قوم من بني هاشم المصاحف وشكوا الجوع.

ومات إبراهيم بن حماد لسبع خلون من صفر، ودفن إلى جانب قبر إسماعيل بن إسحاق.

واحتبس القطر فنادى السلطان بخروج الناس للاستسقاء، فخرج أهل الجانبين في يوم الأحد لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول، وخرج الناس

الأئمة فصلوا بالناس ودعوا وانصرفوا.

ووافى كتاب قاضي أصبهان لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الأول بقتل مرداويج، وكان السبب فيه أنه جعل عسكره صنفين صنف منهم جيل وديلم وهم خواصه وأهل بلده الذين فتح بهم الري ونواحيها، ومنهم صنف أتراك وأهل خراسان، ثم استخص نفرًا من الأتراك فوجد الديلم من ذلك وعاتبوه عليه، فقال: إنما اتخذت الأتراك لأقيكم بهم، وأقدمهم يحاربون بين أيديكم، وأنتم خاصتي وأنا بكم ولكم، فبلغ ذلك الأتراك فأجمع رأيهم على قتله، فأوصوا الغلمان الصغار الذين في خدمته، ووكّدوا عليهم بالتركية أن يفتكوا به، فقتلوه في حمام، وجاءهم الذي واطئوهم على ذلك وأخرجوهم من الدار، وركبوا دوابه وساروا، فاضطربوا فقالوا نجعل علينا رئيسًا فرضوا ببجكم وأخذوا من داره مالًا عظيمًا وآنية فضة وذهب، وكان قد تكبر وتجبر ووضع التاج على رأسه مكللًا بأحسن الحب والياقوت، وجلس على سرير فضة حواليه ذهب، وكان مرصعًا بجوهر، وقال: أنا أرد دولة العجم وأبطل دولة العرب، وصار بجكم والغلمان الذين معه إلى ابن رايق فقبله أحسن قبول، وغمره بالإحسان، وخلع علي غلام الراشدي بحمص وأعمالها.

وقبض السلطان على ابن شنبوذ لما رفع عليه من قراءته بما لا يجوز، وشهد عليه بشهادات فأحضر دار ابن مقلة وحضر ابن مجاهد وجماعة من القضاة والفقهاء فنوظر، فتاب ورجع عن رأيه فكتبت رقعة نسختها:

«يقول محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ إني كنت أقرأ حروفًا تخالف ما في المصحف المنسوب إلى عثمان رحمه الله، الذي اتفق عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى تلاوته، ثم بان لي أن ذلك خطأ فأنا منه تائب وعنه مقلع وإلى الله منه برئ، إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه».

وكتب بخطه في أسفل هذه الرقعة:

«يقول محمد بن أحمد بن أيوب ما في هذه الرقعة صحيح وهو قولي واعتقادي، أشهد الله على ذلك ومن حضر، وقد كتبت هذا بخطي، فمتى خالفت ذلك أو بان مني غيره، فأمير المؤمنين أطال الله بقاه في حل وتبرئة من دمي».

وكتب يوم الأحد لسبع خلون من شهر ربيع الآخر في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وذلك كله في مجلس الوزير أبي علي.

ودعا الأئمة في يوم الجمعة بالجانب الشرقي والغربي بعد دعائهم للراضي لابن ياقوت وقرظوه، فبلغ ذلك الراضي فأنكره وأمر بأن يقلد مكان أبي عمر حمزة بن القاسم من ولد العباس بن محمد على الصلاة بجامع الجانب الغربي أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم بن عيسى بن جعفر بن المنصور ويعرف بابن بريه، وأن يقلد مكان أبي الحسن أحمد بن الفضل بن عبد الملك من ولد العباس بن محمد أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد العزيز على الصلاة بالجامع الشرقي، وأن يقلد أخوه الصلاة بجامع السلطان.

وشغب المؤنسية في طلب الأرفاق وقطعت الجسور وأرجفت الناس بابن ياقوت أنه قتل فركب في الجانبين وأزال الإرجاف بركوبه وسكن الناس.

وتوفي أحمد بن عبد العزيز الجوهري صاحب عمر بن شبة بالبصرة لخمس بقين من شهر ربيع الآخر.

وقبض على محمد بن ياقوت يوم الاثنين لست خلون من جمادى الأولى، وعلى كاتبه أبي إسحاق القراريطي، وعلى نجاح كاتبه على الجيش فقبض من ابن ياقوت على رجل كامل في عقل وعلم وشجاعة وصيانة وعفاف.

واجتمع الحجرية والساجية فقالوا: لا نرضى بأن يكون بدر الخرشنى واليًا

شرطة بغداد فسفر بينهم وبين بدر، ورفق بهم حتى رضوا به، بلغ السلطان أن أبا الفتح بن ياقوت يضرب الحجرية والساجية على الراضي، ليفتكوا به وتوقع البيعة لبعض إخوته فقبض عليه وهو بين يديه يخاطبه ووكل بدوره فلم تنهب وحمل ما فيها ليلًا إلى دار السلطان.

وخلع الراضي على غلامه ذكي للحجبة يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الأول،ى وغضب صغار الحجرية لابن ياقوت، وقالوا: يناظر بحضرتنا فإن وجب عليه شيء وإلا أطلق فداروهم حتى سكتوا وأمر بقبض ضياع ابني ياقوت، وحمل القراريطي على دار الوزير وأخذ خطه بمال قيل إنه ثلاثة ألف ألف درهم أو أقل.

ومات ابن المبشع الشيعي، وكان يروي عن عمر بن شبة لليلتين بقيتا من جمادى الأولى. وفي جمادى الأولى خلع على أبي الحسين علي بن محمد لخلافة أبيه، وزاد أمر الحنبلية في هذا الوقت ونهبوا دكاكين بباب الشام؛ لأن البربهاري مضى بعود أمر عبد الله بن أحمد بن حنبل وعاثوا في مربعة شبيب فأنكر السلطان ذلك وأمر بطلب الدلاء وابن رمضان فلم يوجدا.

وكان النوروز لثمان خلون من رجب، ووجه الراضي إلى أخيه العباس وأحضره الدار مع طائفة منهم أبو القاسم كاتب نازوك، ثم أخرج العباس بين الظهر والعصر، وحضر الوزير والقاضي عمر بن محمد وحضرنا، فكتب القاضي كتابًا بيده ولم يكتبه الوزير. وقال للقاضي: في هذا شروط أنت بها أحذق وعليها أقوم. فكتب كتابًا حسنًا عن حلف العباس ومن معه، أنه ما نكث ولا خرج عن طاعة.

وفي آخر جمادى ولي أبو العلاء سعيد بن حمدان أعمال ابن أخيه الحسن بن عبد الله فنفذ في خف من الجيش فأنزله دارًا له لما صار إلى الموصل وأطمعه في

التسليم إليه، ثم قبض عليه وقتله غلمان الحسن وعظم ذلك على الوزير، وأصلح آلة للخروج، وحلف أنه لا بد له من أن يوقع به أو يصير إلى الحضرة، ويؤدي عشرة آلف ألف درهم.

وقبض على علي بن عيسى يوم الأربعاء لأربع بقين من رجب، جاء راغب الخادم فحمله إلى دار السلطان، ثم صاعد به إلى دار الوزير، وأخذ خطه بخمسين ألف دينار.

وكان الأصل في هذا أن الراضي زعم أن ابن حمدان الحسن وجّه إليه بخمسة آلاف دينار على يد ابن طليب الهاشمي، ليوصلها إلى الراضي، فلم يفعل ذلك، فكان الراضي بعد نكبة علي بن عيسى يحلف أن عليًّا اختان الخمسة الآلف، فكنت أقول له لو تأمل سيدنا هذا من أين وقع وأن عليًّا لا يمد عينه إلى خمسة آلاف دينار، وهو أبعد الناس عن هذا، وكنت أحدثه عنه بما أقدر إزالة ما وقع بقلبه، فلا يقبل إلى أن ضرتي ذلك عنده، وسعى بي قوم من الجلساء إلى الوزير فانحرف عني بعد ميل، وحرمني بعد إعطاء.

وكثر ضجيج بني هاشم في شكوى الضر، وسودوا وجوههم، ومنعوا الإمام يوم الجمعة بالجانب الغربي من الصلاة، فصلى بعد جهد مخففًا للخطبة.

وتوفي في آخر رجب أبو عبيدة القاسم بن إسماعيل المحاملي المحدث ودُفن بمقابر الدير، ووجه الوزير إلى منازل أبي الفرج بن حفص وولده فكبسهم فيها، وطلبهم فلم يوجدوا، فهدم دورهم وجمر نخيلهم، ونقل ما وجد لهم من الأثاث، وكان ذلك لرقعة زعموا وجدت فيها ابن حفص للوزير وجماعة معه بمال خطير.

وخرج الوزير مصاعدًا إلى الحسن بن عبد الله لخمس خلون من شعبان، ومعه خلق من الحجرية والقواد، واستخلف على الحضرة ابنه أبا الحسين،

وأطلق علي بن عيسى إلى منزله بعد أدائه المال، وانحدر إلى ضيعته بالصافية لأيام خلت من شعبان، وانتقل والده إلى الصافية جمال بغداد، ومن لا يرى الناس مثله. ومات نسيم البشراني الخادم للنصف من شعبان، فأمر الراضي أن يرد ما كان إليه إلى كاتبه أبي عمرو فأبى أن يقبل ذلك إلا برئيس من الخدم يكون الاسم له، وحشم الشراب ومن يخدم فيه مضمومون إليه، وهو يكفي الخدمة فجعل الراضي ذلك إلى زيرك الخادم القاهري.

وفي هذا الشهر خرج مفلح الأسود إلى بيت المقدس أشير عليه بذلك لكراهة الراضي مقامه بالحضرة، ولعهدي به وقد دخل ليودعه وهو يبكي ويضطرب، ويقبل الأرض، ويشكو أن فراقه لمولاه كفراقه لحياته، والراضي يقول هذا وجه كنت تحبه، وحيث ما كنت فأنت لي وقريب مني وعنايتي تلحقك، ثم خرج على كره منه.

وورد الخبر بدخول الوزير إلى الموصل أول يوم من شهر رمضان على اختيار عمل له. ومات أبو عبد الله بن المهتدي لليلتين خلتا من شهر رمضان، وكان قد حدث وكان فقيهًا مشهورًا، له حلقة يجتمع إليه الناس.

وفي هذا الشهر قطعت يد رجل في ناحية بشرى المؤنسي وطيف به في الجانبين، ونودي عليه هذا جزاء من يسعى في الأرض فسادًا؛ لأنه اتهم بأن جماعة من الحجرية كانوا يجتمعون في دار له بدرب النهر لبيعة يوقعونها، فقرر وضرب فقال: مقتول، فلم أوقع غيري فمني ووعد العفو فابتدأ يقر، فذكر جليلًا من الحجرية، وأراد أن يذكر غيره، فأمر الراضي بترك سؤاله، وقال: ما حاجتي أن أفسد نيات قوم إذا عرفتهم لم أجد من ينصرني عليهم ويعاونني لعلمهم بوقوفي على أمرهم، فقيل له لا يذكر أحدًا وهذا من جيد رأي الراضي.

وكان قد حفظ عني أن المأمون لما قتل ابن عائشة وجد في منزله قماطر فيها

مكاتبات بعض الجندلة، فجلس وأحضرها وجمع الناس، وقال: أنا أعلم أن فيكم المستزيد والعاتب، وإن نظرت في هذه الكتب فسدت عليكم وفسدتم علي، وقد وهبت مسيئكم لمحسنكم، وأمر فأحرقت القماطر وأسفرت وجوه القوم واستصيب رأيه.

ووقع بالكرخ حريق عظيم في شوال أحرق العطارين والصيادلة وأصحاب المدهون والخزازين والجوهريين، وكان عظيمًا، وقبل ذلك بقليل وقع حريق دونه في أصحاب الحناء والأشنان فآثاره باقية إلى وقتنا هذا، ما رد إلى حالته لما يتزايد في خراب البلد.

وانصرف الوزير من الموصل ولم يبلغ ما أراد فأقام بالبردان لثلاث بقين من شوال لينقضي كسوف الشمس، وكان لليلتين بقيتا من شوال، ثم دخل في أول ذي الحجة وخلف بالموصل علي بن خلف بن طياب على الخراج، ويانسًا المؤنسي على الحرب.

ووافى في هذا الوقت جميع من كان مع محمد بن خلف زوج أخت ابن الحُواري بالخيل مفلولين هزمهم الديلم، فيهم ابن عمرويه وابن الفارقي.

وولي لؤلؤ طريق مكة، وكان غلامًا للمتهشم فخرج بالناس فلقيهم القرامطة يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، بطيزناباذ فقاتلهم أشد قتال، إلى أن خذله أصحابه وأصابته ضربات فطرح نفسه مع القتلى ثم دب ليلة الخميس إلى أن صار إلى الكوفة فاستتر.

وكان من انقضاض الكواكب في ليلة الأربعاء التي قطع على الحاج في صبيحتها، فلم يفلت منهم أحد ما لم يعهد مثله بالكوفة وطيزباذ موضع الوقعة وكان عندنا ببغداد من ذلك ما لم نر مثله ولا سمعنا به قط واستؤسر ابن حاتم، وكان قد تقدم في قافلة الخوارزمية فقتلوا كلهم، وصار إلى القرامطة ألفًا جمل

عليها أصناف البز والأمتعة وأفلت القراريطي من حبس الوزير وتحدث الناس أنه أطعم الموكلين طعامًا فيه بنج.

وأحضر الراضي جعفر بن المكتفي فحبسه لشيء بلغه عنه، ثم أخرجه إلينا مرات نسائله ونخاطبه، وأرسلت إلي والدته تسألني الكلام عنه فما بقيت غاية أنا والجلساء في ذلك حتى أطلقه؛ وذلك لما أوجب الله -عز وجل- عليَّ من حق المكتفي، واصطناعه إياي وإحسانه إلي، وكثر الضجيج ببغداد لما نال الحاج، ووثب العامة بأصحاب المعاوز في الطرق والمساجد، ونال الراضيَ من ذلك أمرٌ عظيمٌ، وصام أيامًا، وكان يقول: لو كان لي مال كمال المكتفي حين فعل ذكرويه بالحاج ما فعل، فطلبه بالجيش والأموال حتى قتله، لما رضيت والله إلا أن أخرج بنفسي إلى البخرين، ولكن ما حيلتي في جند مستحثين، قد ملكوا الأمر دوني، وعوز مال، وانخراق هيبة، إلى الله أشتكي وبه أستنصر.

والحجرية والساجية يعيبونه كل يوم حتى يجلس لهم مرات بالليل والنهار، لا يريده أحد منهم فيحتجب عنه، وصودر أبو يوسف كاتب أم جعفر المقتدر بالله، على أحد وعشرين ألف دينار، وحمل الحسن بن هارون مالًا، وحمل جماعة منهم مصانعةً عن أنفسهم، ووافى الحسن بن عبد الله من الموضع الذي كان صار إليه فولى نقيطًا المؤنسي نصيبين وقلد الديلمي القائد الذي كان معه بلد، لأن من كان بالموصل لم يتجاوزها.

وأحضر في يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة القاضي عمر بن محمد ومعه أبو أيوب السمسار، فنظرا إلى ابن ياقوت ميتًا لا أثر فيه، وأنه مات حتف أنفه وصلى عليه أبو أيوب ودفن في مقبرة لهم في الشارع الأعظم فوق سوق السلاح. ومات أحمد بن محمد البستانبان المحدث وكان ينزل عند دار ابن الحواري، وولد سنة أربعين ومائتين وكان حافظًا للحديث في ذي الحجة.

وفي ذي الحجة طولب أبو الحسين علي بن محمد البريدي بمال فصودر على مائة ألف دينار عن جماعتهم نصفها معجل ونصفها مؤجل.

وأرجف الناس بأنه يسعى للخصيبي بالوزارة، فطلب وكبست مواضع بسببه، وجرد كاتبه ابن رمكة ليضرب من أجله، فحلف أنه لا يعرف مكانه.

سنة أربع وعشرين وثلاثمائة

كان لبني هاشم وثوب في المحرم بإمام الجامع الغربي فخاتلهم حتى صلى ركعتين خفيفتين قرأ في الثانية الحمد وقل هو الله أحد وخطب بكلمات يسيرة، وصاروا من غد إلى الجامع الشرقي فوثبوا بالقاضي وما تركوه يخطب، فانصرف مفلتا من أيديهم، وأمر الوزير أن يفتتح الخراج في هذا الشهر فضج الناس من ذلك.

ومات في هذا الشهر أبو منصور بن جبر النصراني، وما اصطفى بن يعقوب النصراني صاحب بيت مال الخاصة من قبل مؤنس الخادم، وورد تابوت ابن دولة الحسن بن علي بن محمد بن الفرات إلى بغداد من الشام، وذكرت عنه في ولايات تولاها أمور قبيحة من الظلم.

وغرق القاضي ابن كاس فأخرج وبقي أيامًا ومات. وشغب العامة لغلاء السعر في مسجد الرصافة، ودخل الجند في طلبهم إلى الصحن فصعدوا إلى السطوح ورغتوا الفرسان بالحجارة حتى هربوا وحارب الجند العامة يوم السبت بباب الطاق فأخذ السلطان جماعة فضربهم بالسياط وأدراهم، وأشار الوزير بأن يسعر المكوك من الدقيق بثلاثة دراهم فما نفع ذلك، ونادى بأن يتعامل الناس بالغليظ من الدارهم والممسوح طلبًا للرفق بهم. ووقع بين الحجرية والساجية في صفر خلاف فمشى بينهم قوم فاصطلحوا.

وقلد في هذا الشهر الحسن بن عبد الله من تكريت إلى آمد، وفورق على

مال واستقام أمره، وأزيل عنه من بالموصل، ومات في يوم الخميس للنصف من ربيع الأول هارون بن المقتدر بالله أبو عبد الله، وكان كاملًا في عقله وأدبه وأظهر الراضي حزنًا شديدًا عليه، وقال لنا هذا على أنه كان يسعى على هذا الأمر ويكاتبه فيه جماعة منهم ابن ياقوت، وقال لي: كنت أعرف محلك منه أفرثيته بشيء؟ فقلت: نعم، إنما انتظرت الإستئذان في إنشاده فقال جئني به في غد وأنشدنيه مفردًا، ثم أمر بإدخالي إليه من غد وكنت بكرت قبل حضور أهل نوبتي فأدخلني فأنشدته:

تَعَزَّ يا خَيْرَ الوَرَى عَنْ أخٍ ... لَمْ يَشُبِ الإخْلاَصَ بالَّلبْسِ

كَانَ صَدِيقًا وافِرًا وُدُّهُ ... صَدَاقَةَ الأَنْفُسِ والجِنْسِ

تَعَزَّ عَنْهُ بِنَبِيِّ الهُدَى ... مُحَمَّدٍ أُدْخِلَ فِي الرَّمْسِ

وَهُوَ حَبِيبُ اللهِ فِي أرْضِهِ ... مؤيَّدًا بالوَحي والقُدْسِ

سَمَّاكَ بالرَّاضي لِتَرْضَى بِمَا ... تُسْلِفُ مِنْ أَمْرٍ ومَا تُنْسي

قَدْ أَنْذَرَ الدَّهْرُ تَصَارِيفَهُ ... بِأَلْسُنٍ ناطِقَةٍ خُرْسِ

يُخْبِرُنَا عَنْ مَوْتِهِ كَوْنُهُ ... بِغَيْرِ إِذْكَارٍ وَلا حَدْسِ

كَانَ نَسِيبًا لإمَامِ الهُدَى ... بَالوُدِّ والأُلْفَةِ والأُنْسِ

ونِسْبَةُ الجِسْمِ شَتَاتٌ إِذَا ... لَمْ تتآلفْ نِسْبَةُ النَّفْسِ

وَكَانَ فَرْعًا ذَاكِيًا غُصْنُهُ ... مُهَذَّبًا مِنْ خَيْرِ مَا غَرْسِ

وَكَانَ فِي السُّودَدِ ذَا هِمَّةٍ ... وَكَانَ فِي النِّعْمَةِ ذَا غَمْسِ

أَرْسَى عَلَيْهِ دَهْرُهُ مِثْلَ مَا ... أَرْسَى عَلَى سَاكِنَةِ الرَّسِّ

إِنْ صُرِفَ الدهر إِلَى مَا مَضَى ... عَادَ سُرُورُ النَّاسِ ذَا عَكْسِ

حَوادِثُ الأَيّامِ شَقَّاقَةٌ ... تُقَرِّبُ المُسْأَتَمَ بِالْعُرْسِ

يَعْتَقِبُ المَرْءُ بِها حالُهُ ... بِوَطْئِهِ الحُزْنَ إِلَى الوَعْسِ

مَنْ عَزَّ بالدُّنْيا هَفَا قَلْبُهُ ... وَعادَ مِنْهُ النُّورُ ذا طَمْسِ

وَزالَ فِي تَلْوينِها عَقْلُهُ ... وَغالَهُ طَيْفٌ مِنَ اللَّقْسِ

مَنِيَّةٌ إِنْ لَمْ تُفاجِ الفَتَى ... كانَتْ لَهُ بِالسُّقْمِ ذاتَ مَسّ

هَفِي عَلَيْهِ وَقَلِيلٌ لَهُ ... هُفِي وهَلْ يَرْجِعُ لِي أَمْسِي

هُفِي عَلَى مُنْتَخَبٍ حِلْمُهُ ... أَرْجَحُ مِنْ رَضْوَى وَمِنْ قُدْسِ

وايْنَ الأُولَى كانُوا شُمُوسَ الوَرَى ... لُيُوثَ حَرْبٍ غَيْرَ ما شُمْسِ

جَرَى عَلَى السُّودَدِ مِنْهُمْ كَما ... شُيِّدُ بُنْيانٌ عَلَى أَسّ

فافْرِسْ لَهُ صَبْرًا يُزِيلُ الأَذَى ... فَالدَّهْرِ لِلإِنْسانِ ذُو فَرْسِ

يَنْعَمُ مِنْهُ جِسْمُهُ تارَةً ... ثُمَّ تَراهُ جاسِيَ الجِسِّ

فَلَمْ تَزُلْ فَوْقَ المُلُوكِ الأُولَى ... مِنْ عَرَبٍ سادُوا وَمَنْ فُرْسِ

مَنْ لاَ يَرَى حُبَّكَ فَرْضًا فَما ... أَدَّى فُروضَ اللهِ فِي الخُمْسِ

فِداؤُكَ النّاسُ جَمِيعًا عَلَى ... رَغْمِ عَدُوٍّ لِحِزِ شَكِسِ

فالخَلْقُ وارِدٌ مِنْ رِفْدِهِ إِلَى الـ ... ـمَوْتِ وَذِي عَشْرٍ وذِي خَمْسِ

أَوَّلُهُمْ مُنْتَظِرٌ آخِرًا ... فَهُوَ عَلَيْهِ الدَّهْرَ ذُو حَبْسِ

حَتَّى يَجِيئُوا وَكِفاتٌ لَهُمْ ... وَلاَ يُرَى لِلْقَوْمِ مِنْ حِسِّ

وَيَعْثُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَا كُلِّهِ ... لِخابِلِ الجِنَّةِ والإِنْسِ

تَخْشَعُ أَصْواتُهُمْ خِيفَةً ... فَلاَ تُناجِي بِسَوَى الهَمْسِ

دَاعِي المَنَايَا خَاطِبٌ كُفُوَهُ ... كَخِطْبَةِ المُعْتَامِ لِلْعِرْسِ

يَسْمُو إِلَى الأَنْفُسِ فِي قُدْرَةٍ ... مُنَكِّبًا عَنْ سَاقِطِ جِلْسِ

تَلْعَبُ بِالمَرْءِ اللَّيَالِي كَمَا ... قَدْ تَلْعَبُ الأَقْلاَمُ بِالنِّقْسِ

تُرْضِعُ بِالانعَامِ ذَا عِزَّةٍ ... يُقْطَمُ بِالبُؤْسِ وَبِالتَّعْسِ

تُنْبِعُ نُعَمَاهَا بِبَأْسَائِهَا ... وَيَعْقِبُ الصِّحَّةَ بِالنُّكْسِ

فَالحُرُّ فِيهَا أَبَدًا حَائِرٌ ... مِنْ سَوْمِهَا الغَالِي عَلَى مَكْسِ

يُتْعِبُ فِيهَا أَبَدًا جِسْمَهُ ... وَإِنَّمَا الرَّاحَةُ كَالخَلْسِ

يَخْدَعُ فِيهَا بِالمُنَى نَفْسَهُ ... وَوَافِدُ المَوْتِ بِهِ مُرْسِي

يَنْسَى الَّذِي يَأْتِي بِهِ صَرْفُهَا ... وَالآمِلُ الغَرَّارُ قَدْ يُنْسِي

تَلْبِسُهُ مِنْ طَمَعٍ غَفْلَةٌ ... بِالمَطْعَمِ المَلْذُوذِ وَاللُّبْسِ

فَأَسْلَمَ اللهُ إِمَامَ الهُدَى ... فَمَا عَطَاءُ الدَّهْرِ بِالنَّحْسِ

كُلُّ الوَرَى أَنْتَ وَكُلٌّ يُرَى ... عَبْدَكَ مِنْ عَالٍ وَمِنْ نِكْسِ

بَقَاؤُكَ الفَوْزُ لَنَا وَالغِنَى ... نُصْبِحُ فِيهِ مِثْلَ مَا نُمْسِي

شَوَى صُرُوفُ الدَّهْرِ مَا لَمْ تُصِبْ ... فِي الرَّطْبِ إِنْ عَانَتْ وَفِي اليَبْسِ

مَنْ تَاجَرَ الدَّهْرَ بِلاَ صَرْفِهِ ... فَصَارَ مِنْ رِبْحٍ إِلَى وَكْسِ

فَأَسْلَمَ الكُلَّ فَلاَ بَأْسَ أَنْ ... يُرْزَأَ فِي السُّدْسِ وَفِي الخُمْسِ

إِنْ غَيَّبَ البَدْرَ كُسُوفٌ فَقَدْ ... لاَحَتْ بِسَعْدٍ غُرَّةُ الشَّمْسِ

مَا طَالِعُ الأُمَّةِ يَا سَيِّدِي ... إِذَا خَطَاكَ الخَطْبُ بِالبَخْسِ

فما فرغت من الإنشاد حتى بكا بكاء شديدًا، ثم قال لي أنت كنت حدثتني

أن المأمون قال لمحمد بن عباد المهلبي لما مات أخوه أبو عيسى، وكان أحب الناس إليه: يا محمد حال القدر دون الوطر. قلت له: قد كان ذاك، فقال: والله ما كان المأمون لأبي عيسى بأشد حبًا مني لهارون ولا أصح نية فيما ورى عنه.

ودفن هارون في داره بقرب الجسر، وحضره يومه الوزير والقواد، وكل نزع سيفه ومنطقه إلى أن دفن بعد العصر وانصرفوا فقال بعد ذلك: لو لا أني لا أدرك ثأري لقتلت بختيشوع الطبيب، سقى أخي هارون درهم سقمونيا حتى قتله ورمى بكل ما في جوفه! وإن كان المشئوم ما تعمد ذلك، ولكنه أعمى القلب، قصير العلم بليد الفكر، مرزوق في أيامه،محظوظ.

وأشاع الناس بأن ابن رايق يريد الصعود من واسط إلى بغداد ولحقه الناس من بغداد، فظن الساجية والحجرية أن ذلك بمكاتبة الراضي.

فتكلموا في ذلك فكتب إليه لا تجيء ووجه بما كرد وينال وعبد الله بن علي كاتب نسيم، يناشدونه في مقامه وقدموا من عنده يوم الخميس لست خلون من شهر ربيع الآخر.

ومات في هذا الوقت علي بن العباس النوبختي وقد قارب ثمانين سنة وكان حسن الأدب والشعر، وكان ابنه الحسين يكتب لابن رايق ويدبره أمره. وقدم شيخ هاشمي من سر من رأى يقال له إبراهيم بن عبد الصمد بن موسى فحدث واجتمع إليه، وذكروا أنه ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، وكان عنده علو إسناد مفقود في وقته، الموطأ عن مالك عن أبي مصعب الزبيري، وروى عن أبي سعد الأشج وعبد الجبار بن العلاء العطار. فتكلم الناس في سماعه والتهبت له سوق ثم طفئت ورجع إلى سر من رأى.

واستحق الساجية والحجرية، فطالب الوزير مياسير التجار بأموال يعجلونها، ويكتب لهم بها سفاتج فاستتروا. وضرب ابن جبير الدقاق، وأخذ

منه مالًا، وأمر من كان ينزل بسور المدينة أن ينتقل لتباع المنازل.

ووجه الحسن بن عبد الله بمائة كر دقيقًا، يفرق بسر من رأى وبغداد على الأشراف والضعفى، ففرح به الناس، وحدرت زواريق كثيرة للتجار فصلح السعر.

وبلغ الحجرية والساجية أن بدرًا الخرشني والمؤنسية والرجالة قد عزموا بأمر السلطان، فتنكروا لهم فخرج بدر ومن معه إلى الصحراء يوم الثلاثاء، لثلاث خلون من جمادى الأولى، وقالوا: كيف صار الساجية والحجرية يأخذون المال وقت استحقاقهم ونحن نؤخر بقسم المال بيننا! وصار الحجرية والساجية إلى الحلبة وأقاموا بها، واستظهر السلطان بعض الاستظهار ببعض اليلبقية[1] والهارونية وغلمان أم المقتدر. ثم إن الحجرية والساجية أخرجوهم عن الدار، وصار الخرشني إلى مسجد الجامع بالرصافة فضرب خيمة هناك وتبعه جعفر بن ورقاء ولؤلؤ وغيرهم.

وكان الراضي قد اختص جعفرًا وشاوره فحسن أثره في رأيه وفضله. وقال الساجية والحجرية للراضي: قد أشاع الناس أنا محاصروك فاخرج فصل الجمعة بالناس ليزول ذلك، فخرج فصلى بالناس في مسجد الدار، وما علم به الناس. وقال للحجرية وللساجية أنتم خاصتي وثقاتي، وسفر جعفر بن ورقاء بين الناس فأصلح الأمر.

ووعد الناس بأن الخليفة يصلي بهم في الجمعة الثانية فما تخلف أحد، وما كنت أنا علمت بصلاته أول جمعة فحضرت في الثانية ووجدت إسحاق بن المعتمد حاضرًا فدخلنا المقصورة وخرج الراضي فعلا المنبر، ووقعت عينه

---

(١) لعلها البليقية نسبة إلى أتباع ابن بليق.

علينا فخطب فأوجز ونزل وصلى بالناس فقرأ سورة الجمعة في أول ركعة وفي الثانية سبح اسم ربك الأعلى أتم قراءة وأحسنها ودخل وانصرفنا.

فابتدأت أعمل شعرًا أصف فيه خطبته، فوافتني رقعة بخطه وفيها: أبقاك الله يا محمد، قد لحظك طرفي وأنا أخطب وأنت إلى جانب إسحاق قريب مني، غير بعيد عني، فعرفني على تحري الصدق واتباع الحق كيف ماسمعت وهل تهجن الكلام بزيادة فيه أو اختل بنقص منه أو وقع ذلك في لفظه أو إحالة في معناه جاريًا فيه على عادتك في حال الإمرة غير مقصر عنها للخلافة إن شاء الله، فكتبت إليه جواب الرقعة بعد أن أتممت القصيدة.

أمير المؤمنين أدام الله دولته وأطال في الملك مدته أجل خطرًا وقدرًا، وأسنى مجدًا وفخرًا، وأوسع خاطرًا وفكرًا من أي يبلغ خاطب خطابته، أو يروم بليغ بلاغته، أو يدرك فيها واصف صفته إلا بما تناله طاقته وتبلغه غايته.

ولما وصل إلى عبده سؤاله عن حسن ما وعاه وسمعه، وجليل ما حفظه ولقنه من كلامه في خطبته وتصرفه في حسنه -عجز عن بلوغ كنهه لسانه ولم يؤده شرحه وبيانه، ففزع في وصف ذلك إلى قول من كان أقوم بوصف مثله وأشد استقلالًا به وأحسن أداء له وهو حسان بن ثابت في وصف كلام جده عبد الله بن عباس نضر الله وجهه وصلى على روحه فإنه قال فيه:

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلٍ ... بِمُنْتَظِمَاتٍ لَا تَرَى بَيْنَهَا فَصْلَا

كَفَى وشَفَى مَا فِي النُّفُوسِ فَلَمْ يَدَعْ ... لِذِي إِرْبَةٍ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلَا

يَقُولُ مَقَالًا لَا يَقُولُونَ مِثْلَهُ ... كَنَحْتِ الصَّفَا لَمْ يُبْقِ مِنْ غَايَةٍ فَضْلَا

وقد عمل عبد أمير المؤمنين أبياتًا في وصف ذلك جعل أمام مدحه تشبيبًا لم يخله من تشبيه مبتدع ومعنى منتزع، إذ كان الأمر قد تقدم إليه أن يجعل ذلك في صدور قصائده، وأوائل مدائحه وهو يأمل أن يقع من استحسان سيده

بحسب تفضله عليه، واصطناعه إياه والأبيات:

أَسُرُّكِ يَـــا مُنَـــايَ وَلاَ أَسُـــوكِ ... وأَنفِـي بِـالهَوَى عَـرَضَ الشُّكُوكِ

وأَحْمِيـكِ الَّـذِي تَخْشِينَ مِنْـهُ ... كَمـا يَحْمِيكِ مِـنْ عَـارٍ أَخُـوكِ

لَقَـدْ بُلِّغْـتُ فِيـكِ مَـدَى المُنَايَـا ... وَمـا بَلَغَـتْ مَـدَى عَـشْرٍ سُـنُوكِ

أَرَى الهِجْـرَانَ مِنْـكِ يُجِيـلُ صُـبْحِي ... وَمَـا أَذْنَبْـتُ لَـيْلاً ذَا حُلُـوكِ

وَدَهْـرُ الْوَصْـلِ يحكْـي لِي رَبِيعًـا ... يُـشَابِهُ نَبْتُـهُ خَـلَى الهُلُـوكِ

رِيـاضٌ نُمْـرِجُ الأَلْحَـاظُ فِيهَـا ... مَنَـوَّرَةُ الأَعَـالِي وَالسُّمُوكِ

بَهَـارٌ قَـدْ حَكَـى الْعُـشَّاقَ لَوْنًـا ... عَـلَى قُـضُبٍ حَكَـتْهُمْ فِي النُّهُـوكِ

وَوَرْدٌ مِثْـلُ خَـدٍّ مِنْـكِ رَاضٍ ... جِـوَارَ فَـمٍ تَبَسَّمَ عَـنْ مُسُوكِ

وَيَـضْحَكُ أَقحُـوَانٌ فِيـهِ يَحْكِـي ... لَنَـا ثَغْـرًا تَكَـشَّفَ عَنْـهُ فُـوكِ

تَطَلَّـعَ بَـيْنَ ذَاكَ وَبَـيْنَ هَـذَا ... شَـقَائِقُ مِثْـلُ أَعْـرَافِ الـدُّيُوكِ

مَـدَاهِنُ مِـنْ عَقِيـقٍ نَظَّمَتْهَـا ... يَـدا خَرْقَـاءَ وَاهِيَـةِ السُّلُوكِ

حَلَفْـتُ بِغُـرَّةِ الـرَّاضِي فَـإِنِّي ... أَرَاهُ حَقِيقَـةً فَـوْقَ المُلُـوكِ

بِأَخَّـاذٍ لِمَـا يُرْجَـى أَلُـوفٍ ... وَعَيَّـافٍ لِمَـا يُخْـشَى تَـرُوكِ

عَبُـوسٍ فِي انْتِهَـاكِ المُلْـكِ فَـظٍّ ... وَطَلْـقٍ فِي مَذَاهِبِـهِ ضَـحُوكِ

تَهُـوضٍ بِـالخُطُوبِ إِذَا اعْتَرَتْـهُ ... فَرَاهَـا هَبَّـةَ السَّيفِ الْبَتُـوكِ

عَـشِيقُ المُلْـكِ جَـاءَ بِـلاَ كِتَـابٍ ... يُرَجَّـى الْوَصْـلُ مِنْـهُ وَلاَ أَلُـوكِ

فَمَـنْ لِلْبُخْـلِ يُمْسِكُ مَـا حَـوَاهُ ... فَـمَا هُـوَ بِالْبَخِيـلِ وَلاَ المُسُوكِ

أَجَـلُّ النَّـاسِ آرَاءً وَعِلْـمًا ... مَقَـالٌ لَـيْسَ يُقْـرَنُ بِـالأُفُوكِ

وَمَـا أَحْيَـاهُ مِـنْ سُـنَنٍ تَعَفَّـتْ ... فَـذَارَ صَـلاَحُهَا دَوْرَ الـذُّمُوكِ

رَكُـوبٌ لِلْمَنَـابِرِ سَـارَ قَـصْدًا ... إِلَيْهَـا وَهِـيَ حَـائِرَةُ السُّلُوكِ

فَـذَكَّرْنَا مَقَـالٌ مِنْـهُ فَـصْلٌ ... مَقَـانَ الْمُـصْطَفَى بِحِـرَى تَبُـوكِ

فَـأَطْلَعَ مِنْـهُ شَـمْسُ الْمُلْـكِ سَـعْدًا ... وَكَانَـتْ نَحْـسَةً بِـشَفَا الـذُّلُوكِ

لأَعْتَمِـدَنَّ سَـيْرَ الْمَـدْحِ فِيـهِ ... بِإِرْقَـالٍ يَـبَرُّ عَـلَى الرُّتُـوكِ

أَحُـوكُ مِـنَ الْقَـصَائِدِ وَشْيَ مَـدْحٍ ... تُفَـضِّلُهُ عَـلَى الْـوَشْيِ الْمُحُـوكِ

لَقَـدْ فَتَـكَ الزَّمَـانُ بِـسُوءِ حَـالِي ... فَأَنْقِـذْنِي مِـنَ الـزَّمَنِ الْفَتُـوكِ

فتأخر الجواب عني بيومين، ثم وافت رقعة يقول فيها قد استحسنت الشعر غاية الاستحسان، ورأيتك تكلفت فيه ما لا يجب عليك من لزوم الواو في أرداف القافية، ورأيت المدح مليحًا قد وقع كله في القسم[1]، ورأيت في صدر الأبيات في نهاية الحسن، تقدمت فيها كل من وصف ما وصفت، وخاصة بيت البهار لتشبيه شيئين فيه. وقد تأملت البيت الأخير وأنفذت إليك في هذا الوقت ما تبنى به المنهدم من حالك، إلى أن تنجلي الهبوة التي نحن فيها إن شاء الله. ومع الرقعة صرة ديباج مختومة بخاتم راغب الخادم، فيها ثلاثمائة دينار.

وتنكر الساجية والحجرية للوزير، بعد أن صالحوا الخرشني، ورجع الجميع إلى منازلهم، وانحدر الوزير إلى دار السلطان بأرزاقهم، فعرفهم أن لا مال عنده، فوثبوا به وقبضوا عليه، والسلطان يراهم، فوثب ودخل وأمر راغبًا يتسلم الوزير ويكون في يده، وأن لا تجري جناية عليه.، ونهب الناس داره

(١) كذا في الأصل ولعله النفس.

ودار ابنه الملاصقة لداره، وطرحوا فيها النار، ونهب جماعة من كتابه.

وأحضر أبو علي عبد الرحمن بن عيسى في هذا اليوم، فولي الوزارة وهو يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى بعد أن عرض السلطان الوزارة على علي بن عيسى واستعفاه فأعفاه.

وكان من العجائب المشهورة أن دار ابن مقلة أُحرقت في مثل اليوم الذي أمر فيه بإحراق دار سليمان بن الحسن بباب محول، وفي مثل ذلك الشهر بينهما حول كامل، وظهر في عشية هذا اليوم سليمان بن الحسن والخصيبي، واستوحش الخرشني الساجية والحجرية. وتحول فنزل دار الحسن بن هارون، وشغل عن العامة فعاثوا، ثم صار إليه جماعة من الحجرية فحلفوا له أنه واحد منهم فرضي ورجع إلى داره وكتب على حيطان ابن مقلة:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَحِينَ تَصْفُو اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

وتحته: صنع بدارك مثل ما صنعت بدار سليمان.

وحول ابن مقلة إلى دار الوزير أبي عبد الرحمن، فأحسن إليه وسلمه إلى هنكر وماكرد ليكون في أيديهما، ويناظره سليمان في الأموال بحصرتهما في يوم الأحد لثمان ليال بقين من جمادى الأولى في دار النوشري بقرب الحبس.

واتصل بالسلطان أن أبا الفتح بن ياقوت قد حبب جماعة محمد الأولياء وحملهم على الفتك بالخليفة والبيعة لأخيه عبد الواحد، فقبض عليه بين يدي الخليفة، وثب به الحدم وحبسوه في حجرة لأربع ليال بقين من جمادى الأولى. وصرف الخرشني عن شرطة بغداد لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وولوا كاجو الجانب الغربي، وجعل الجانب الشرقي إلى أبي الفتح تتج الحجري وأخيه أبي الفوارس سخرباس شركة بينهما.

وناظر سليمان ابن مقلة وانفرد له ابن الحارث فلقى ابن مقلة منه عنتا وأعطى خطه بمال يقال إنه ألف ألف دينار، عنه وعن جميع أسبابه، أربعمائة ألف دينار منها معجلة، ثم لم يحمل شيئًا، فحرك السلطان علي بن عيسى وأخاه الوزير في ضمان ابن مقلة، فوجها إليه بالخصيبي فقرر الأمر على نحو الأول، على أن تقوم ضياعه وتؤخذ، وينجم الباقي في سنتين.

وعز الخبز والدقيق فلم يوجد أيامًا ببغداد، ووقع في الناس طاعون عظيم فتفانوا ببغداد وما سواها. وضرب الخصيبي ابن مقلة ضربًا مبرحًا، وأحاله على جماعة منهم ابن المغلس الفقيه فاعترف بخمسة آلاف دينار عنده لابنه أبي الحسين وأمر بحملها فحملها، ومات في تلك الليلة من سكتة عرضت له، وكان فقيهًا على مذهب داود جدلًا موسرًا، وذلك لأربع خلون من جمادى الآخرة.

وفي هذا الشهر رخصت الأسعار، وبلغت الساجية والحجرية أن السلطان على الخروج إلى الموصل.، فقالوا: هذه حيلة علينا، وقالوا لجعفر بن ورقاء، هذا عملك ثم بطل ذلك.

وتوفي يوم السبت لأربع خلون من رجب أبو محمد العلوي الرملي رحمه الله، ولو قلت إني ما رأيت أفضل منه في دينه وزهده وكرمه، لما خفت إثمًا، ودفن ببراثا وكان من لم يلحق الصلاة عليه يصلي على قبره أيامًا.

وطلب سعيد بن عمرو بن سنكلا -عند أبي الحسن علي بن عيسى وعند أخيه أبي علي- ما كان يجده عند غيرهما فعز ذلك عليه ولم يستحلا أن يمدا إلى أموال الناس، فحمل الراضي على عزلهما، فقبض على عبد الرحمن يوم الاثنين لست خلون من رجب. وخلع على أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وولي الوزارة، وكانت مدة أيام عبد الرحمن خمسين يومًا، وسلم ابن مقلة إليه

ليناظره، ووجدت له خزانة في دار ريطة فيها ذهب وفضة ومتاع يساوي نحو مائتي ألف دينار، وقبض على أبي عبد الله بن عبدوس وصودر على مائتي ألف دينار، فتكلم سعيد بن عمرو في حطيطته والوزير يخالفه حتى شرق الأمر بينهما، فكان ذلك سبب زوال الكرخي، وأدى ثمانين ألف دينار وأطلق.

وصودر علي بن عيسى وأخوه، وصرفا إلى منازلهما من دار الوزير، ومات أبو بكر بن مجاهد القارئ يوم الجمعة للنصف من شعبان، ولم يُر مثله ولا رأى هو مثل نفسه في علمه، وخلّف مالًا صالحًا وورد تابوت جحظة من واسط، وكان شخص إلى ابن رايق. فيا بعد ما بين الاثنين، على أن جحظة كان أحذق الناس بصناعته، وكان له شعر صالح، وكان يروي أخبارًا عمن رأى، ومات أيضًا قريض المغني، غلام محمد بن داود في هذا الوقت.

وقبض على عبد الله بن يونس، وعلي ابن شيبب وطولبا بأموال فلم يوجد عندهما ما ظنه من يسعى بهما، فأخذ من الساعي بابن يونس مال وكان كالشريك له. وصودرا على شيء يسير وأطلق. وصودر ابن مقلة في شهر رمضان على مائة ألف دينار فإذا أداها أطلق، وضمن المال عنه ابن قرابة وحوله إلى داره. وتحقق ابن قرابة بأمر الوزير الكرخي وغلب عليه، وورد الخبر في شهر رمضان بقتل ياقوت قتله غلمان اللوش البربري فاضطرب الحجرية، فوجه الراضي يحلف أن ذلك قد ساءه، وما كان له إذن.

وضج الحنبلية فيه من أمر ابن شنبوذ، فحمل إلى دار السلطان ونوظر، والسلطان يسمع من وراء حجاب وتاب وحبس، واستتر الوزيرالكرخي يوم الاثنين لثمان خلون من شوال وأحضر سليمان بن الحسن فخلعَ عليه للوزارة وانصرف إلى منزله يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال.

وفي هذا الشهر مات المعروف بزنجي الكاتب، وكان مقدمًا في الكتبة مذ

أيام أحمد بن محمد بن الفرات وهو الذي اصطنعه، وكان كاجو وينال انحدر إلى ابن رايق فوصلهما ورجعا ثم انحدر كاجو وماكرد وتكنجور وصافي قواد الساجية، وانحدر معهم أبو جعفر بن شيرزاد والحسن بن هارون وأبو بكر بن الصيرفي، انحدروا بخلع السلطان على ابن رايق ليكون أمير الأمراء، فوافت الأخبار إلى بغداد يوم الجمعة لسبع خلون من ذي الحجة بأن ابن رايق قبض على قواد الساجية فحبسهم وحبس معهم الحسن بن هارون، وتقطع أصحابهم وفروا وسلبوا ونهبوا.

وورد كتاب ابن رايق يعتد على السلطان بقتله أعداءه المارقة الطغاة قرئ على المنابر، ووافى بغداد لؤلؤ غلام المتهشم واليًا الشرطة من قبل ابن رايق، فتسلم يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة وبث خلفاءه فيه وعزل تتج وسبخرباس، ودخل ابن رايق بغداد يوم السبت لست بقين من ذي الحجة، وخلع عليه ونزل في الحلبة في دار السلطان وطالبه بالخروج إلى واسط ليتم تدبيره ويريحه من الحجرية، وورد خبر الطير من فاتك بأن صغار الساجية قصدوا داره لكبسها واستخراج قوادهم منها، وأنه رمى إليهم برءوسهم واستبقى الحسن بن هارون وصافيًا، وكان ابن رايق أنفذ محمد بن يحيى بن شيرزاد وقت قبضه على الساجية إلى بني البريدي في أشياء بينه وبينهم.

سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

خرج الراضي إلى واسط لليلتين خلتا من المحرم، فوصل إلى واسط يوم الأربعاء لخمس خلون من المحرم، وابتدأ ابن رايق في عرض الحجرية فلم يصبروا على ذلك، واجتمعوا فحاربوه لأيام بقين من المحرم، وكانوا مستظهرين عليه حتى خرج بجكم كمينًا عليهم، فوضع السيف فيهم فولوا منهزمين وأسر من رؤسائهم جماعة فيهم خمارجور أسر، وبه ثلاث عشرة ضربة، وسلحجور ويمن القرواني وبه ضربة قد ذهبت بإحدى عينيه، وفارس

بن ينال، وغرق خلق منهم وتقطعوا في الصحارى وسلبهم أهل القرى وقتلوهم.

وكتب إلى لؤلؤ بالقبض على من ببغداد منهم وإحراق منازلهم، وغنم بجكم وأصحابه غنيمة عظيمة من دوابهم وسلاحهم وأموالهم، وكان أبو الحسين علي بن محمد البريدي قد وافى واسط فأوصله ابن رايق إلى الراضي حتى خاطبه، وولاهم الأهواز والبصرة، وخلع عليه ابن رايق الخلع التي كان الراضي خلعها عليه حين ظفر بالحجرية وركب معه، ورجع السلطان إلى بغداد فدخلها يوم الاثنين لثمان خلون من صفر، وقدم ابن رايق معه فنزل دار مؤنس، ونزل بجكم دار محمد بن خلف النيرماني بشريعة سوق الدواب، ونزل القرامطة في البصلية، وتفرق باقي أصحابه.

وكان الحجرية ببغداد قد حاربوا لؤلؤًا قبل قدوم الخليفة فحاربهم في رحبة العامة من بعد العصر إلى المغرب فظفر بهم وتفرقوا وكان ابنا الصلحي قد نظرا في الأمور لكتبتهما لابن رايق، فلما قدم فسد أمرهما ودار أمر ابن رايق على الحسين بن علي النوبختي، وهو الذي دبر له جميع ما مضى وبلغه هذه الحال.

ومات الجريري المحدث أبو أحمد لسبع خلون من المحرم. ومات القاضي ابن أبي الشوارب يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم. ومات بسر من رأي إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي المحدث الذي كان قدم بغداد، وخلع علي بجكم ليوم الاثنين لسبع خلون من شهر ربيع الآخر، وولي إمارة بغداد وعقد له لواء لولاية المشرق إلى خراسان.

وخلع على لؤلؤ لإمارة الكوفة، وخلع على عمر بن محمد لقضاء القضاة. وصلح أمر أبي علي بن مقلة؛ لأنه طرح نفسه على ابن روح النوبختي فكلم له

الحسين بن علي بن العباس كاتب ابن رايق فأصلح أمره، وأوصله إلى الأمير فأمره بفتح بابه.

ومات ابن نزار في النصف من شهر ربيع الأول، وفيه تقلد الخصيبي أزمة جميع الدواوين وخلع على ينال وولي الجبل وجرد جماعة من الحجرية مع هنكر للجبل واستحلفوا وأطلقت أرزاقهم فخرجوا إلى الدسكرة وهم نحو خمسمائة، فأوقعوا بأكراد وأعراب فغنموا غنيمة عظيمة، ثم مضوا إلى بني البريدي فغلظ ذلك على السلطان وأمر بالنداء: أنه إن وجد أحد من الحجرية بعد ثلاث قتل.

ولحق من كان بقي من الساجية ببغداد بالموصل بأصحابهم فإن من كان منهم ببغداد في وقت الحادثة على قوادهم لحق بالحسين بن عبد الله بالموصل وأحسن إليهم وأرزقهم وصرفهم، فلحق بهم من كان ببغداد، وكان من رؤسائهم بالموصل شفيع الخف.

ومات في شهر ربيع الآخر أبو بكر بن أبي الأزهر، وزعم أن مولده سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وكذبه أصحاب الحديث؛ لادعائه السماع من أبي كريب وسفيان بن وكيع وإسحاق بن الضيف ونظرائهم.

ووافى القرمطي الكوفة في آخر شهر ربيع الآخر فخرج ابن رايق لثلاث خلون من جمادى الأولى إلى مضربه بالياسرية في أحسن عدة وأكمل زي، ومعه بجكم وأحمد بن نصر القشوري وجماعة من القواد، ونفذ بجكم في المقدمة إلى القصر فوجدوا لؤلؤًا وحقهم ابن رايق ومعه بجكم إلى النعمانية، ثم رحلوا إلى واسط ليزيلوا أمر ابن البريدي.

ومات ابن ميسر المحدث بواسط وكان سيدًا. ومات أبو يوسف كاتب أم المقتدر يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة.

وأمر بلعن البريديين ببغداد، وأشهد الراضي القضاة والعدول على نفسه أن قد رد أمر البريديين في حربهم أو تركهم أو لعنهم أو مقاطعتهم إلى ابن رايق، وأنه يرضى كل شيء يعمله في أمرهم وطلب أسبابهم ببغداد وكتب على أملاكهم صوافي.

وقلد لؤلؤ بغداد يوم السبت لست خلون من رجب وخلع عليه. وصار إليه من عمل الكوفة إلى بغداد، ومن الأنبار إلى بغداد، ومن النعمانية إلى بغداد.

ومات إبراهيم الجاثليق يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان وقبض أبو عبد الله الكوفي على ابن شيرزاد لتسع بقين من شعبان وظفر بفتنة جارية البريدي فعذبها ابن مقاتل، فقالت له وهو يعذبها: «يا ابن مقاتل من الرفش إلى العرش!».

وصار ابن رايق إلى دجلة البصرة فواقعه أصحاب البريدي فهزموهم وصارت البصرة لهم خالصة. وقطع أمر ابن شيرزاد على تسعين ألف دينار بخمسة وعشرين ألف دينار منها ضياع، وما بقي فبعضه معجل وبعضه مؤجل وأطلق إلى منزله لست بقين من رمضان وتألف لؤلؤ العيارين وأصحاب العصبية وأثبت بعض العيارين. ووصل أبو الفتح الفضل بن جعفر بن فرات إلى بغداد في شوال. ووصل إلى الخلفية، واستوزر يوم الخميس لسبع خلون منه.

وكان بجكم قد هزم البريديين وملك الأهواز فصاروا إلى البصرة والأبلة وأقاموا بها ومعهم قوادهم وأكثر رجالهم قبل هذا الوقت وصار فاتك حاجب ابن رايق إلى دجلة البصرة ليأخذ البصرة فلقيه بالمفتح إقبال فهزمه ورده إلى الجامدة. ومات شيخ مسند يعرف بالزعفراني، نزل دار عمارة وانحدر الوزير والقاضي عمر بن محمد والكوفي في ذي القعدة إلى واسط، إلى ابن رايق.

ومات أبو مزاحم موسى بن عبيد الله بن يحيى في ذي الحجة، وكان عنده إسناد ليس بالزفيع. ورجع الوزير إلى بغداد ولم يلق ابن رايق لأنه خاف أن يطالبه بمال. ودخل الكوفي بغداد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، خليفة لابن رايق فجمع مالًا وخرج إليه لثلاث بقين من ذي الحجة.

سنة ست وعشرين وثلاثمائة

رجع القاضي عمر بن محمد إلى بغداد لليلتين خلتا من المحرم. ونزل الوزير داره التي على دجلة بين القصرين، ووجه إلي يأمرني أن أحمل إليه كتاب الكتاب الذي ألفته فاستحسنه، وكان جميع من يدخل إليه ممن يأنس به ويعلم أنه يفهم، يقول له: لقد سرني أنه بقي في الزمان من يحسن أن يؤلف مثل هذا! ووصلني بثلاثمائة دينار وأعطى الحشم رزقه وألحق اسمي بهم وأطلق رزقي وزاده في جملة المال، وكان ابن مقلة قد أخرجني من جملتهم وأفردني لما جالسه ابنا المنجم وشعثاني عنده فكاتبته بأشعار يغفر بها الكبائر من الذنوب فما عطف علي! منها أني مدحته بقصيدة ما مدح بمثلها قط، فما استمع الشعر مني، فأنفذته على يد أبي بكر بن الخياط النحوي، فلما قرأه قالا له قد هجاك في القصيدة فقال ابن الخياط أين الهجاء من هذه القصيدة، قالا قوله:

مَا عَلَى الأَرْضِ مَادِحٌ لَكُمُ قَبْـ ـلِي وَحَقِّي مَا بَيْنَكُمْ مَهْضُومُ

وأنت فقد مدحك قبله عبيد الله بن عبد الله، وابن بسام فكيف صار هو أول من مدحك، فقال ابن الخياط: إنما عني الرجل: ما على الأرض ما بقي أحد مدحكم قبلي، ولم يقل ما تحت الأرض، وأعانه أبو عبد الله أخو الوزير وناظر فيه على حق وصواب، وهو لا يسمع إلا قولهما، قال: فلم يكن لنا حيلة. وأنا أذكر الشعر وإن كان طويلًا لخصال، منها: أنه حسن، ومنها: أنه ما مدح بمثله، ومنها: تكذيب من زعم أني هجوته فيها وهو:

أَنَا مِنْ بَيْنِ ذَا الْوَرَى مَظْلُومُ ... وَإِذَا مَا خَصَمْتُهُمْ مَخْصُومُ

تَتَخَطَّانِيَ الْحُظُوظُ فَأَسْتَى ... وَمَكَانِي مِنْ عِلْمِهِمْ مَعْلُومُ

كَمْ تُرَى فِي الزَّمَانِ مِثْلِيَ حَتَّى ... لَمْ يَرُمْنِي الْوَزِيرُ فِيمَنْ يَرُومُ

قَدْ تَعَدَّانِيَ اخْتِيَارُ كَرِيمٍ ... وَهُوَ طَبٌّ بِالاخْتِيَارِ عَلِيمُ

وَهُوَ أَعْلَى الْكُفَاةِ مَجْدًا وَفَضْلًا ... إِنَّ ذَا مَا عَلِمْتُ حَظٌّ جَسِيمُ

لَيْسَ هَذَا إِلَّا لِتَأْخِيرِ حَظٍّ ... حَقُّهُ حِينَ يُنْصَفُ التَّقْدِيمُ

لَسْتُ أَشْكُو أَبَا الْحُسَيْنِ وَحَاشَا ... هُ لَهُ دُونَ ذَلِكَ التَّعْظِيمُ

أَنَا لَوْ لُمْتُهُ وَقَدْ خُصَّ غَيْرِي ... بِدُنُوٍّ مِنَ الْوَزِيرِ مُلِيمُ

أَتَرَانِي أَخْلَلْتُ بِالعِلْمِ حَتَّى ... شَدَّ مِنِّي التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ

لَوْ رَمَى بِي الزَّمَانُ عِزًّا تَلِيدًا ... لَمْ يَرُضْنِي الذَّكَاءُ وَالتَّعْلِيمُ

كَيْفَ نُجْلِي عَلَيْهِ أَبْكَارَ لَفْظٍ ... وَلَهُ فِي الأَنَامِ مِثْلِي نَدِيمُ

أَتَظُنُّ النَّدَامَ تَرْضَى بِهَذَا ... لَا وَتُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمُ

أَيْنَ مَنْ جَالَسَ الخَلَائِفَ قَبْلِي ... وَافِرٌ حِينَ تُسْتَخَفُّ الحُلُومُ

طَائِرِي سَاكِنٌ وَفِكْرِي عَزُوفٌ ... عَنْ فُضُولِ المُنَى وَلَحْظِي سَلِيمُ

وَكَلَامِي قَدْرُ الكِفَايَةِ إِلَّا ... شَرْحُ عِلْمٍ وَجَانِبِي مُسْتَقِيمُ

فَأَعِينُوا عَلَى الزَّمَانِ بِعَدْوَى ... إِنَّ ذَنْبَ الزَّمَانِ عِنْدِي عَظِيمُ

لِيَ عِدَاتٌ طَيْرُ التَّقَاضِي عَلَيْهَا ... طَلَبًا لِلنَّجَاحِ مِنْكُمْ نُحُومُ

وَالْوَزِيرُ الصَّغِيرُ فِيهَا زَعِيمٌ ... بِالَّذِي أَرْتَجِي وَنِعْمَ الزَّعِيمُ

هِيَ دَيْنٌ عَلَيْهِ وَهُوَ مَلِيءٌ ... مُنْصِفٌ مِنَ العِدَى وَدَهْرِي ظَلُومُ

لِعَلِيٍّ عَلَى الأَنَامِ اعْتِلَاءٌ ... حَادِثٌ مِنْ جَلَالِهِ وَقَدِيمٌ
وَرِثَ الْمَجْدَ مِنْ غَطَارِفَ شُمٍّ ... غُرَرٍ لَا يُعَدُّ فِيهِمْ بَهِيمُ
فَهُوَ يَنْحُو الْوَزِيرَ فِي كُلِّ فَضْلٍ ... لَيْسَ يَنْحُو الْكَرِيمَ إِلَّا كَرِيمُ
أَنْفُسٌ تَعْشَقُ الْمَكَارِمَ وَقْفًا ... فَرَّقَتْهَا عَلَى ائْتِلَافٍ جُسُومُ
فَعَلِيٌّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ... طَابَ فَرْعَاهُمَا وَطَابَ الْأُرُومُ
ذَاكَ بَدْرٌ لَنَا وَهَذَا هِلَالٌ ... ذَا هَوَاءٌ لَنَا وَهَذَا نَسِيمُ
لَمْ تَلِدْ مِثْلَهُ الْمُلُوكُ كَمَالًا ... فَهُوَ ثَأْرٌ مِنَ الْعَدُوِّ مُنِيمُ
مَنْطِقًا يَشْغَلُ اللِّحَاظَ بِحُسْنٍ ... فَهُوَ ثَاوٍ عَلَيْهِ لَيْسَ يَسْرِيمُ
تَسْتَرِدُّ الْعُيُونُ حُسْنًا إِلَيْهِ ... مِثْلَ مَا يَسْتَرِدُّ دَيْنًا غَرِيمُ
وَنَفَاذٌ يَقْرِي الْوَلِيَّ سُرُورًا ... وَيَرُدُّ الْعَدُوَّ وَهُوَ كَظِيمُ
لَوْ تَمَنَّاهُ وَالِدٌ مَا عَدَاهُ ... وَإِلَيْهِ فِي أَمْرِهِ التَّحْكِيمُ
لَمْ يُمَحِّضْ بِمِثْلِهِ مُقْرَبُ الدَّهْـ ... ـرِ وَلَا اسْتَامَ شِبْهَهُ مَنْ يَسُومُ
لَوْ يُحَابَى النُّجُومُ فِي طَالِعِ الْمَجْـ ... ـدِ لَقُلْنَا حَابَتْهُ فِيهِ النُّجُومُ
لَيْسَ يَأْتِي بِمِثْلِهِ الدَّهْرُ فَضْلًا ... هُوَ عَنْ ذَاكَ غَيْرَ شَكٍّ عَقِيمُ
كُلُّ رَهْنٍ فِي سُؤْدَدٍ أَغْلَقُوهُ ... فَلَهُ السَّبْقُ فِيهِ وَالتَّسْلِيمُ
أَنْتُمُ يَا بَنِي عَلِيٍّ نُجُومٌ ... لِلْوَرَى فِي الضِّيَاءِ لَيْسَتْ تَغِيمُ
خَيَّمَتْ فِيكُمُ مَحَاسِنُ حَظٍّ ... لَاحَ مِنْهَا لِلنَّاسِ دُرٌّ عَظِيمُ
قَلَمٌ جَامِعٌ بَيَانًا وَحُسْنًا ... مَا حَوَى فِيهِ مِثْلَكُمْ إِقْلِيمُ
تَتَبَاهَى بِهِ الْقَرَاطِيسُ حُسْنًا ... مِثْلَ وَشْيٍ تَرُوقُ مِنْهُ الرُّقُومُ

وكَـــلامٌ كَأَنَّـــهُ زَهَـــرُ الـــرَّوْ ... ضِ بَـــدَتْ لِلنُّجُـــومِ مِنْـــهُ نُجُـــومُ
قَـــدْ أَحَاطَـــتْ بِـــهِ عُيُـــونُ المَعَـــانِي ... وأَضَـــاءَتْ فِي جَانِبَيْـــهِ الظُّلُـــومُ
لَكُـــمْ إِنْ تَـــسْقِهِ الجُـــودَ جَـــوْدٌ ... وَاقِـــعٌ دُرَاهُ وَخِـــصْبٌ مُلِـــيمُ
وَسَـــحابٌ مِـــنَ النَـــوالِ وِسَـــاعٌ ... ضَـــاقَ عَنْـــهُ سَـــحابُهُ المَرْكُـــومُ
مَـــدْحُكُمْ وَاجِـــبٌ عَـــلَيَّ كَفَـــرْضٍ ... لَـــيْسَ فِيـــهِ لَغْـــوٌ وَلاَ تَـــأْثِيمُ
لَـــيْسَ لِي فِي تَـــأَخُّرِي عَـــنْكُمُ ذَنْـــ ... ـــبٌ وإِنِي مِـــنْ أَجْلِـــهِ مَهْمُـــومُ
كُلَّـــمَا جِئْـــتُ حَـــالَ دُونِي حِجَـــابٌ ... وَتَعالَـــتْ لَـــهُ عَـــلَيَّ الهُمُـــمُ
كُـــسِرَتْ دُونِيَ الحَوَاجِـــبُ غَمْـــزًا ... وَبَـــدَا لِلعُيُـــونِ لَمْـــحٌ ذَمِـــيمُ
لَمَعَـــتْ لِي بِخُلَّـــبِ الـــوَمْضِ مِنْهـــا ... بِنَـــوَاحِيَّ بِـــهِ لِحَـــاظٌ سَـــقِيمُ
فَكَـــأَنِّي لَـــدَيْهِمُ شَـــخْصُ بَـــوٍّ ... لَمْ تُعَطَّـــفْ عَلَيْـــهِ ظِئْـــرٌ رَءُومُ
طَـــبْعُهُم ظَـــاهِرُ القَـــساوَةِ فَـــظٌّ ... لَـــيْسَ فِـــيهِمْ مَـــعَ الْـــبَلاءِ رَحِـــيمُ
لَـــيْسَ لِي فِي الْوُصُـــولِ وَقْـــتُ اخْتِـــصَاصٍ ... وكَـــذَا فِي الْعُمُـــومِ مَـــالِي عُمُـــومُ
فَأُسِـــيمُ الْكُـــرُوبَ فِي مَـــسْرَحِ الْقَلْـــ ... ـــبِ وَمَرْعَـــى الْحِجَـــابِ مَرْعًـــى وَخِـــيمُ
مَالَهَـــا مَـــشْرَبٌ عَلَيْـــهِ مَـــعَ الظِّـــمْ ... ءِ وَوِرْدِ الإِخْمَـــاسِ إِلَّا الْحُمِـــيمُ
وَالَّـــذِي يُوجِـــبُ الْمَـــدِيحَ لِـــشَرْحِي ... جُمُّـــهُ الْفَـــاءُ وَالنَّبَـــاتُ الْجَمِـــيمُ
لاَ تَكُـــرُّوا عَـــلَيَّ فِـــيهِمْ مَلَامًـــا ... فَعَـــذَابُ الْحِجَـــابِ عِنْـــدِي أَلِـــيمُ
وكَـــذَا جَـــاءَ فِي الـــتِّلاوَةِ نَـــصًّا ... لَـــيْسَ بَعْـــدَ الْحِجَـــابِ إِلَّا الْجَحِـــيمُ
كُلُّهُـــمْ فِي أَوَانِ إِذْنٍ عَـــدُوٌّ ... وَصَـــدِيقٌ فِي غَـــيْرِ إِذْنٍ نَمِـــيمُ
وَنِيَـــامٌ عَـــنْهُمْ كَنَوْمَـــةِ أَهْـــلِ الـــ ... ـــكَهْـــفِ لَـــوْلَا وَصِـــيدُهُمْ وَالـــرَّقِيم

لَمْ يَلِدْهُمْ جِوَارُ سَعْدٍ كَمَا قَا ... لَ جَرِيرٌ وكُلُّهُمْ مَرْكُومُ

مَا أُعَلِّي عَلَيْهِمُ اللَّوْمَ لكِنْ ... مُلْزِمِي فِيهِمُ المَلَامَ ذَمِيمُ

وَعَطَايَاكَ إِنَّهَا فَيْضُ بَحْرٍ ... إِنَّ شَيْطَانَ مَنْعِهِمْ لَرَجِيمُ

أَمِنَ الحَقِّ أَنْ يَجِفَّ ثَرَى رَبْـ ... ـعِي مِنْكُم وغَيْثُهُمْ مَسْجُومُ

لِيَ مِنْ غَيْثِهِ رَذَاذٌ وَطَلٌّ ... وَلِغَيْرِي الأَجَشُّ مِنْهُ الهَزِيمُ

نَامَ حَظِّي فَأَيْقِظُوهُ بِجُودٍ ... إِنَّهُ بَعْدَ بَذْلِكُمْ تَتْمِيمُ

قَدْ تَشَكَّيْتُ مَا أُلَاقِي إِلَيْكُمْ ... مِثْلَ مَا يَشْتَكِي الوَصِيَّ يَتِيمُ

كُلُّ مَنْ أَخْطَأَتْهُ رَحْمَةُ عَطْفٍ ... مِنْ نَدَاكُمْ وَأَنْتُمُ مَرْحُومُ

فِي زَمَانٍ طَرَزْتُمُوهُ بِجُودٍ ... وَهُوَ لَوْلَاكُمُ زَمَانٌ لَئِيمُ

لِي بِكُمْ حُرْمَةٌ ثَلَاثِينَ عَامًا ... غَيْرَ أَنِّي مُبَاعَدٌ مَرْجُومُ

لَيْسَ لِي مِنْكُمُ اخْتِصَاصٌ بِأُنْسٍ ... بَلْ أُرَى ظَاعِنًا وَغَيْرِي مُقِيمُ

مَا عَلَى الأَرْضِ مَادِحٌ لَكُمُ قَبْـ ... ـلِي وَحَقِّي مَا بَيْنَكُمْ مَهْضُومُ

حِينَ سَيْفُ المَدِيحِ مُدَّرَعُ الغِمْـ ... ـدِ لَدَيْكُم مَا سَلَّهُ التَّصْمِيمُ

لِيَ مِنْهُ وَخْدُ المَسِيرِ وَنَصٌّ ... وَلِغَيْرِي خِنَافُهُ وَالرَّسِيمُ

وَعُيُونُ الآمَالِ تُطْرَفُ عَنْكُمْ ... مَالَهَا نَحْوَكُمْ لِحَاظٌ تَدُومُ

مِدَحِي سَبَّقٌ وإِذْنِي سُكَيْتٌ ... مَا قَضَى مِثْلَ ذَا القَضَاءِ سَدُومُ

مِدَحٌ مُلِّكَتْ رِقَابَ المَعَانِي ... عُطِّلَتْ مِنْ حَلْيِهِنَّ الرُّسُومُ

شَغَلَتْهَا عُلَاكُمُ مِنْ مَغَانٍ ... سَئِمَتْ مَرَّهَا عَلَيْهَا السَّمُومُ

فَهُوَ زَيْنٌ لِعُمْرِ تَجْبِيكُمْ وَعِزٌّ ... وَنُجُومٌ عَلَى عِدَاكُمْ رُجُومُ

وَلآلٍ لَكُمْ يُضِيءُ سَنَاها ... وَنُحُوسٌ لِشانئيكُمْ حُسُوم

حَرَّمَ اللهُ أَنْ يَكُونَ جِنابِي ... مُجْدِبًا مِنْ نَدَاكُمُ وَالْحَرِيمُ

ضَامَنِي الدَّهْرُ باجْتِنَابِكُمُ قُرْ ... بِي وَمَنْ ضَامَهُ الزَّمَانُ مُضِيمُ

أَنْصِفُونِي فِي نَظْمِ مَا قُلْتُ فِيكُمْ ... هَلْ يُدَانِيهِ لُؤْلُؤٌ مَنْظُومُ

هُوَ لَفْظٌ تَحَكَّمَ الطَّبْعُ فِيهِ ... مِثْلُهُ لا عَدِمْتُكُمْ مَعْدُومُ

وَتَخَطَّى عِرَاصَكُمْ بُؤْسُ دهْرٍ ... وَنَوَتْهَا مَسِيرَةٌ وَنَعِيمُ

كُلُّكُمْ فِي مُعَجَّلِ الدَّهْرِ والآ ... جِلِ جَمُّ الْعُلَى مُعَافًى سَلِيمُ

وبلغَ الراضي أمر القصيدة، فقال اكتبها لي حتى أنظر فيها، فلما قرأها قال لي: أنت والله معهم في هذا كما قال البحتري:

إِذَا مَحَاسِنِيَ اللَّاتِي أُدِلُّ بِهَا ... كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ مَعادِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ لَهُمْ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقَرُ

فما نفعني ذلك شيئًا بل ضرني. وإلى وقتي هذا أنا في خمار كأسهما التي أعدداها لي، فما يقبل علي من وليا به عني وأحمد الله.

وفي المحرم أمر رجل يعرف بالحواجبي، على خال سنكلا نصراني يعرف بأبي عمرو بن شريح بمعروف فشكا ابن سنكلا بعبد الله إلى الراضي فأمر بالقبض على الحواجبي، وأمر بإحضاره الدار، وأن يضرب بالسياط. فما زال إسحاق بن المعتمد وما زلت معه نكلمه فيه ونعلمه أن قتل هذا عظيم وسمع ضجة، فقال لذكي الحاجب: ما هذا؟ قال أهل باب الطاق في أمر الحواجبي. فقال لئن زادوا لأخرجنه إليهم مصلوبًا هذا لم يرض أن وثب على كاتبي حتى تخطى إلى ذكرى فوجهنا وصرفناهم، ولم نزل حتى أمر بحبسه، وأفلت من غير

ذلك.

وبلغ هذا البريهاري فعاتبني فيه وخاصمني، وجاءني أصحاب الحواجبي يشكروني، فقلت: اعفوني من هذا فإني في بلاء عظيم، وتكلم فيه كل جليل فما نفع. وشاورني أصحابه فعرفتهم أن الراضي لا يفعل إلا ما يريده ابن سنكلا، وأشرت بأن يقصدوه في أمره فكلموه فيه غدوة يوم فأطلق في عشيته. وخرج الراضي معه الوزير متنزهًا وخرجنا معه فسار من الجانب الشرقي حتى حارتي بُزُوغَى ثم عبر إليها فأقام يومين ورجع. وورد لعشر خلون من المحرم رجل يعرف بالخلنجي كان يحمل الخريطة إلى مكة ويسبق بالأخبار فأخبر بسلامة الناس وتمام الحج.

ومات يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم موسى من ولد الرضا، وكان من أسن ولد الحسين -عليه السلام- في وقته، ونودي في الطريق بحضور جنازته، وكان من الزهد والطهارة على طريقة سلفه رضي الله عنهم وعنه.

وكثر الضجيج من تعنت أصحاب لؤلؤ للناس ووضع الجبايات عليهم وإغرامهم، فعزل عن شرطة بغداد، ووليها محمد بن بدر الشرابي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر.

ومات شيخ بالكوفة محدث مسند، يعرف بسوداني كان عنده عن أبي كريب وعباد بن يعقوب، ووافى رسول ملك الروم بهدايا كثيرة منها صياغات وثياب ديباج ومقارم وآنية ذهب، طريفة الصياغة، فجلس الراضي يومها فعرضها علينا، ووهب لنا أكثرها، وما كان شيء ألذ عنده من شيء يهبه وطعام يؤكل بين يديه ما بخل بشيء قط، وما سمع بأكمل جود منه.

وورد الخبر بوقعة كانت لابن رايق إلى دجلة البصرة، ودخل نهر معقل

فوافى البصرة، فعجل بعض أصحابه، فطرح حريقًا في جزيرة حيال البصرة، وكان يبلغ أهل البصرة أنه يريد قتلهم وإحراق بلدهم وخاطب بذلك بعض رؤساء البصرة ممن قصده، فلما رأى ذلك أهل البصرة أعانوا البريديين فهزم ابن رايق وأفلت هو وبجكم من أن يؤخذ ورجع إلى دجلة البصرة فعسكر بموضع يعرف بعسكر أبي جعفر حيال نهر معقل، فلما طال الأمر عليه رحل صاعدًا إلى واسط.

وركب الراضي في شعر ربيع الأول إلى أجمة بالثريا يطلب فيها خنازير، وركبنا معه فرأينا في الموكب فرسانًا لا نعرفهم فطاف ساعة، ثم عدنا معه فتغدى وكان النهار قصيرًا وصلينا الظهر وركب، فرأينا الفرسان قد زادوا وأنكرهم الحاجب ووافى محمد بن بدر الشرابي في مائة فارس، فلما رآه الفرسان تفرقوا فلم نر منهم أحدًا فصاد خنزيرا وانصرفنا، فقال لنا بعد: من أي شيء أفلتنا يوم الخنازير؟ وإنا لبين يديه في الحجرة التي كان يجلس فيها، ونحن أربعة، وكذا كانت نوبتنا إذ أدخل رجل مشدود العينين بذراعية وخف، فلما أقيم بين يديه، قال: مالنا نحن قرامطة، فقال له الراضي: يا بن الفاعلة، لو كنت محتاجًا لعذرتك، ولكن من رشحك لهذا قد أغناك وجعل إليك نقابة، ومولك فك الكلب النابح، فضربوا فكه وهو يقول: بتربة المقتدر ارحمني، وإذا هو أبو عبد الله بن المنتصر والمنتصر جده. ثم قال له الراضي: والله ما طلبت هذا الأمر، فأما إذ دفعت إليه فوالله لا طلبه أحد في أيامي ساعيًا علي فعاش. ثم أمر به فنحي وأدخل بيتًا حيال بركة السباع فعرفنا من الغد أنه قتل في ليلته، وأخذ جماعة بسببه فحبسوا؛ منهم المعروف بالزهري، وابن أبي الحناء، وإبراهيم، وغيرهم.

ثم حدثنا الراضي بعد ذلك؛ قال: كان الفرسان الذين رأيتموهم بالثريا قد عزموا على الفتك بنا، فلما جاء ابن بدر يئسوا فمضوا، فقال واحد منهم لبعض

من كان ندبه لهذا: لقد مددت يدي إلى سيفي مرات لأضربه به؛ يعنيني، فقال: فهلا فعلت لعنك الله. وأراد قائل هذا أن يكون وزيرًا لابن المنتصر، وهو يريضه لهذا منذ مدة وقد أغناه، ثم قرأ علينا رقعة جاءته من أبي علي بن مقلة: العجب من اتهام الناس إياي بسبب هذا الأمر. وتعجب الراضي من جهل من اتهمه بهذا الأمر، وأقرأنا جوابه إليه يصدقه في قوله، وبأنه ما سمع ما ذكره ولا وقف عليه إلا من رقعته وَيُسَكِّنُ منه.

وأمر بطلب أولئك الفرسان نظفر ببعضهم فآمنهم، ووصلهم، وفرق بينهم، وسمع كلام كل واحد منهم مفردًا، فحدثنا أنهم عرفوه كيف جرى الأمر من أوله إلى آخره حتى وقف على صحته، وجعل الراضي يوري عن ذكر الفاعل لهذا إذا حضرت جماعتنا، ويصرح به إذا حضر من يثق به منا، واتصل هذا الخبر بابن رايق فقدم في آخر شهر ربيع الأول، وتلقاه ابنا الراضي، وأظهر أنه قلق لما جرى وخاف أن يسعى في مثله لبعده عن مولاه، وإنما جاء لضيق المال واستحقاق الجند وأن بجكم أقبل إلى واسط فلم يحب الاجتماع معه، ولم يزل يطالب الوزير بالمال وهو يجمعه له، وأخذت في هذا الوقت من الراضي آنية ذهب وفضة فضربت.

وأنفذ ابن رايق إلى بجكم من المال ما قدر عليه وزوج لوزير الفضل بن جعفر ابنه بابنة ابن رايق، وزوج أبا بكر بن طغج بابنة له أخرى، وكانت الوليمة في ذلك الوقت، وخطب القاضي عمر بن محمد بحضرة الخليفة للجميع خطبة واحدة، وكان مهر أبي بكر بن طغج ثلاثين ألف دينار، ومهر ابن رايق نصفها وعزم الوزير على الخروج إلى الشام، واستخلاف أبي بكر عبد الله بن علي النَّفَّري على العرض وإمضاء الأمور بالحضرة، فخرج لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر، وهجم بعقب خروجه على أبي عبد الله بن عبدوس وطولب بمال عظيم. ثم تقرر أمره على خمسة عشر ألف دينار أخذت منه

بألوف، منها جارية مغنية كانت له، وترك له من أجلها الباقي.

وقبل هذا بمديدة ما اشترى ابن رايق من ابنة عبد الله ابن حمدون جارية زوجة محمد بن عبد الله ابن حمدون جارية مغنية يقال لها شرين بأربعة عشر ألف دينار، فاستعظم الناس ذلك، وتسلمت الجارية، وحمل المال من عند أبي الحسن البريدي، وحملت هي إلى واسط. وطولب محمد بن يحيى بن شيرزاد بمال فحمل اثنتي عشر ألف دينار. وقبض على أبي إسحاق القراريطي واتهم بأنه تضمن أبا عبد الله الكوفي وابني مقاتل بمال عظيم، فسلم إلى أحمد بن علي الكوفي فجرى عليه من المكروه ما لم يجر مثله على أحد، حتى ظن الناس أنه تلف.

وغضب الراضي على جليسه محمد بن عبد الله بن حمدون أبي جعفر واتهمه بكلام بعض خدمه، وما كان لذلك أصل كما ظنه، وأمر ألا يوصل إليه، فاختلت نوبتنا وكنا أربعة به فبقي إسحاق بن المعتمد والعروضي وأنا، ثم حدثنا بأنه فعل به ذلك لاتهامه إياه بتعريف ابن رايق ما يجري في مجلسه بسبب الجارية المشتراة منهم، وأنها سبب الوصلة بينهم، وكان يبلغه أن ابن حمدون يعاشر ابن رايق إذا خرجت نوبته.

وكان انحراف الراضي عن ابن رايق في هذا الوقت يتبين في طرفه وقوالب لفظه، ثم صرح بذلك لي وللعروضي من بين الناس، فكنا نعتذر لابن حمدون من أمر الخادم الذي كان هو أعلم ببطلانه، ثم نحلف له أنه مثلنا في جميع أموره مأمون السر والعلانية. إلى أن وثق بذلك، وتقرر عنده. وكان ابن رايق قد كلم الراضي في الرضا عنه فلم يجبه، وكتب ابن حمدن إلى الراضي بأبيات يعتذر فيها وهي:

أَطَارَ الكَرَى عَنْ مُقْلَتَيَّ التَّعَتُّبُ وَجَمْجَمْتُ مَا أَلْقَاهُ وَالحُزْنُ يَعْزُبُ

وَحُمِّلْتُ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَا ... جَوًى غَيْرَ مَا يُدْعَى لَهُ الْمُتَطَبِّبُ

وَيُوشِكُ أَنْ يَدْعُو بِيَوْمِ مَنِيَّتِي ... سَرِيعًا إِلَى الأَعْدَاءِ نَاعٍ مُطَرِّبُ

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ: الَّذِي دُونَ عِلْمِهِ ... عُلُومُ الْعِبَادِ فَهُوَ أَعْلَى وَأَغْلَبُ

يَرَانِيَ بِمَا ظُنَّ إِنِّي اقْتَرَفْتُهُ ... وَهَلْ يَغْمُرُ الإِحْسَانُ حُرًّا فَيُذْنِبُ

فَقُلْتُ كَمَا قَالَ الْمُقَدَّمُ قَوْلُهُ ... لِنَنْقِمَ وَالأَمْثَالُ تُجْرَى وَتُضْرَبُ

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي ... وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

فَإِنْ أَكُ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ ... وَإِنْ تَكُ ذَا عَتْبٍ فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

وقررت أنا والعروضي في نفس الراضي عند وصول هذه الأبيات أن ابن رايق ليس بالصافي النية لابن حمدون، وعرفنا سبب ذلك فرضي وقال: قولوا له يسأل ابن رايق أن يكلمني في أمره أو يكاتبني فإنه يقبح أن أرضى عنه بغير مسألته بعد أن كلمني في ذلك فأبيت عليه، فكاتبه ابن رايق فأجابه وعاد إلى أمره.

وظن الراضي أن ابن رايق قد اتهمه بتغير، له فدعاه إلى الزبيدية فأكل بين يديه مع ابنيه على مائدة كانت عن يمنة الراضي، وأكلنا نحن على مائدة أخرى، عن يساره وجعل يبره بالشيء يرفع من بين يديه، ثم جالسه على النبيذ ومد له بشارته حتى سمع وشرب، وخلع عليه وقت الظهر خلعة وشيئًا مثقلة بالذهب ومعممة كذلك، فجلس فيها ساعة. ثم خلع عليه عند العصر وقت انصرافه خلعة أخرى انصرف فيها بعد أن شرب نبيذًا كثيرًا.

واستكتب بجكم بواسط علي بن خلف في جمادى الأولى. وزاد أمر البريهاري وأصحابه، فكتب إليه ابن رايق رقعة يحذره فيها وينذره فأظهر القبول وتضمن ترك المعاودة.

ورد رسول ملك الروم مع الوزير وقت خروجه بهدايا، وأجيب إلى الفداء وأمر الوزير أن يتم أمره من مال الشام، وحضر الناس الفداء وأخرج الراضي خادمه راغبًا لحضور ذلك.

وتحرك بعض عياري المخرم في أمر السعر، وكلم بقال في سوق الثلاثاء بعض أصحاب ابن رايق في شيء تجاذبا له، فغضب ابن رايق من ذلك وأمر أصحابه فأحرقوا حوانيت كثيرة في سوق الثلاثاء إلى ناحية المخرم، وفعل فعلًا استقبحه الناس وكرهه الراضي وحقده عليه، وكان هذا في شعبان. وصودر شفيع المقتدري على أربعة آلاف دينار مصادرة ثانية.

وتوفي أبو القاسم الحسن بن روح النوبختي يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان. وكان الراضي ربما ذكره بأن الإمامية يحملون إليه الأموال، فنرد عنه ونكذب، فيقول لنا: وما في هذا؟ والله لوددت أن مثله ألفًا تحمل الإمامية أموالها إليه فيفقرهم الله ولا أكره غنى هؤلاء من أموالهم.

ومات رجل يعرف بالطبري بدار كعب وخل مالًا عظيمًا، وكان له أخ بطبرستان وابن أخ ببغداد فوجه ابن رايق فحمل من داره وحوانيته مالًا ومتاعًا كثيرًا، فتكلم الناس في ذلك، ودخل العروضي وهو يلي المواريث ولاه الراضي إياها. وكان مرضيًا ثقة فيها فعرفه أمر الرجل فأنكر الراضي ما فعله ابن رايق وأنفذ إليه بما أقلقه فأمره برد جميع ما أخذ إلى موضعه، وظفر بالدلا فحبس في دار ابن رايق ثم أفلت وظفر به بعد مدة وقتل.

وتحدث الناس في شوال بأن رقة ابن مقلة جاءت إلى الراضي يتضمن فيها ابن رايق وابني مقاتل بألفي دينار، وأنه يقبض عليهم بحيلة قريبة إذا أمر بغير كلفة، فوجه إليه الراضي: مثل هذا الأمر العظيم، والوقوف على ما يدبر فيه لا يجيء بالرقاع فصر إلي حتى تعرفني الوجه فيه، ويتفق الرأي على ما يعمل به.

فصار إلى ذكي الحاجب ليلًا سرًا فأعلم الراضي بأمره، فأمر الراضي بحبسه، وفي نفسه عليه أمر ابن المنتصر، وأنه الذي ريضه للخلافة.

وكتب الخصيبي من وقته رقعة إلى ابن رايق يعلمه أن ابن مقلة عند الراضي، وأنه قد تضمن به وبابن مقاتل وأنه يستوزره، فركب ابن رايق مع قواده وجيشه إلى الدار، وقال: لا أبرح إلا تسليم ابن مقلة إلى. فأخرج فقطعت يده اليمنى، وانصرف ورد إلى محبسه بعد أن ناشده الله ألا يفعل ذلك، وأن ينفيه إلى حيث رأى، فأبى إلا الفعل القبيح، الذي لم يأت أحد مثله.

ونودي في جانبي بغداد بأن السلطان قد رضي عن بني البريدي وأسبابهم، وأطلق ابن رايق لبناء دورهم.

وبلغ ابن رايق أن بجكم يصعد إلى بغداد لطلب أرزا أصحابه وكان قدم قبله الترجمان في المطالبة بالمال، فلم يرجع بما أحب فخرج مصاعدًا. فخرق ابن رايق نهر ديالى، وفعل أفعالًا كانت سببًا لبثق النهروان الذي خربت به الدنيا، وافتقر الناس وغلت الأسعار إلى وقتنا هذا، وصار إلى الدار فضرب خيمة في الحلبة وأسكنها قواده.

ووافى بجكم نهر دَيَالَى[1] يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة. وحاربه ابن رايق فاحتال بجكم إلى أن عبَّر بعض أصحابه، وانهزم ابن رايق وأصحابه وجاء إلى السلطان ليدخل إليه، فغلقت الأبواب دونه فصار إلى داره فحمل ما قدر عليه، وخرج ومعه بدر الخرشني، وصاح الناس: هذا عقاب من الله لك، لاستكتابك الكوفي وتسليطك إياه على الناس. وكان قد استكتبه، وعزل به الحسين بن علي بن العباس النوبختي بعد أن بلغه المنزلة

---

(١) رسم في الأصل في المرة الأولى: ريالى، وفي هذه بيالى متصلة.

التي بلغها برأيه وتدبيره وهو الذي احتال على الساجية ودبر أمر الحجرية فصار ابن رايق إلى أوَانَا ثم خفي أثره. وكاتب السلطان بدرًا الخرشني فرجع. واستتر الكوفي وابنا مقاتل ببغداد.

ووصل بجكم إلى الراضي يوم الثلاثاء وخلع عليه يوم الخميس سبع خلع، وقال له: قد جعلتك أميرًا. وعقد له لواء له، فقال: يا مولاي ما أريد إلا أن تزاح علتي في أرزاق أصحابي وقت استحقاقهم، ونزل في دار مؤنس. وأخذ لابن رايق ابن صغير فجربه إلى بجكم فبكى حين رآه وأجرى عليه جراية واسعة، ونودي إن من دل على الكوفي وابني مقاتل فله عشرة آلاف درهم، ومن وجد واحد منهم عنده فقد حل دمه وماله.

وعقد لبجكم على المشرق وأشير على الراضي أن يضم إلى حاجبه جيشًا من جيش الحضرة وقوادهم، وأن يفرد مالهم عن مال أصحاب بجكم، وأن يوجهوا بكتاب الجيش ليحصوا أصحاب بجكم، ويحصلوا مبلغ مالهم ويعرفوا الراضي حتى يثبته عنده ولا يزيد أحد فيه شيئًا إلا بإذن منه، فما قبل الراضي ذلك إلا في أمر حاجبه ولا في جيش بجكم، فما مضى لبجكم شهران[1] حتى زاد أصحابه وزاد فيهم من أثبت بعشرين ألف دينار في السنة وأكثر، وجرى أمره على ذاك إلى أن قتل.

وكان هذا مما عتب على الراضي إغفاله وظفر بالكوفي فحمل إلى الدار، حمله غلام لذكي الحاجب يقال له خير، فرجمته العامة وأرادوا قتله، فدفع خير عنه، وقال: تذهبون بمال السلطان فوصل به إلى الدار بعد تعب شديد، وصودر على مال وشملته عناية ابن سنكلا. وما رأيت أحدًا قط ملك من

---

(١) في الأصل: فما مضى لبجكم شهرين.

حسن رأي صاحبه ما ملكه ابن سنكلا من الراضي.

وقد علم الله عز وجل أني ما قصرت في تقريظ الكوفي عند الراضي وتعريفه كفايته وأمانته، وأنه بخلاف ما عليه العمال من التصون والاجتزاء بالقليل، مما رأيته في ولايته، بعد أن كان محسنًا إلى معنيًا بي، عرف لي ذلك على طول الجوار وقديم المودة. وأخذ بجكم من مضحك كان لابن رايق يعرف بأبي الخير خمسة عشر ألف دينار. ووصل أصحاب البريديين إلى واسط، وقرب القرامطة منهم على وفاق وأمر عقدوه بينهم، ومات أبو طالب الكاتب وكان محدثًا يروي عن أبي موسى الراضي، وأحمد بن يحيى السوسي، وتوفي يوم الجمعة للنصف من ذي الحجة ومولده سنة سبع وثلاثين ومائتين. ووجدت أم ابن رايق فصودرت على عشرة آلاف دينار.

وكان ابن القشوري أحمد بواسط حين زال عنها إقبال، فورد كتابه يزعم أن البريديين يريدون واسط فوجه إليه بأبي نصر الترجمان في جماعة. ووجد يهودي مع مسلمة وكان غلامًا لجهبذ يهودي لابن خلف فضربه صاحب الشرطة بحضرة اليهودي في يوم جمعة، فافتتن البلد لذلك وكان الأمر قبيحًا.

سنة سبع وعشرين وثلاثمائة

خرج الراضي بالله في سحر يوم الثلاثاء لثلاث خلون من المحرم يريد سر من رأى ليشخص منها إلى الموصل لمحاربة الحسن بن عبد الله، وخرج بجكم في هذا اليوم وخرجنا مع الراضي فكان بجكم ينزل بين يديه بقليل، وتعبث أهل عسكره بالناس وتأذى الراضي بذلك، وكان قبل خروجه يذكر أمره ونهوضه ويقول: لا بد لي منه. فنشير عليه ألا يفعل ذاك، وكان ممن يوافقني على الرأي في تركه الخروج عمر بن محمد القاضي فلم يلتفت إلى قول أحد ولا أظهر ما أراده وما عزم عليه. وأمر الراضي أن يكون عبد الله بن علي البغوني

خليفة الوزير الفضل بن جعفر خارجًا معه وأن يكون عبيد الله بن محمد الكلوذاني خليفة الوزير على الأعمال والأموال مقيمًا ببغداد.

وأخرج أحمد بن علي الكوفي إلى تربة أم المقتدر ليؤذي ما فورق عليه. وكرهت العامة خروج السلطان إلى الموصل لمحبتهم للحسن بن عبد الله وعنايته بإنفاذ الدقيق إليهم ولبره بالأشراف وما يتصدق على الضعفى بسر من رأى وبغداد، ولكفاية أخيه على الناس أمر الثغور والغزو، وعنايته بغزو الصايفة وغيرها.

وخرج القاضي عمر بن محمد الراضي واستخلف ابنه يوسف ابن عمر على بغداد مكانه. فركب إلى جامع الشرقي فقضى وقرأ السجلات وركب معه جميع العدول، وحضر محمد بن بدر الشرابي صاحب الشرطة مجلسه ونثر عليه دراهم ودنانير في غير موضع، فوصل الراضي إلى سر من رأى وأنفق في أصحاب بجكم نفائس منيفة كان أعدها لنفسه ولهوه، وظن الناس أنه سيقيم بسر من رأى وينفذ بجكم إلى الموصل فإن احتاج إليه لحق به وإلا أقام بمكانه، وجعل كل من يصل إليه يشير عليه بذلك.

وورد عليه الخبر بتحرك أمر ابن رايق وأنه يكاتب الناس للوثوب ببغداد، فظننا مع ذلك أنه لا يبرح، وانطلقت الألسن لأجل ذلك بالمشورة عليه ألا يبرح من سر من رأى وكان أشد الناس كراهة لخروجه ورحيله القاضي عمر بن محمد وذكي الحاجب، فكنا نجتمع على ما نقوله. وورد كتب الحسن بن عبد الله وإلى الراضي وإلى بجكم يتضمن لهما أكثر مما ظن أنه يبذله له وكتبه بذلك متصلة إلى القاضي وهو يتولى إيصالها عنه وينفذ الجواب، وكان يقرئني كل شيء يرد، فأقام الراضي أيامًا بسر من رأى وطمعنا في رجوعه، واتفقت مع القاضي على أن يكلم الراضي كل واحد منا إذا خلا به ورأى وجهًا للكلام، فوصلت إليه بسر من رأى يومًا وحدي قبل أن يحضر أهل نوبتي، فقلت يا أمير

المؤمنين إن العبد المتفق لا يملك كتمان ما بقلبه لمولاه، ولا يدخر النصح.، وما على المولى شيء من أن يسمع قول عبده، فإن كان صوابًا أمضاه، وإن كان خطأ جعله بمنزلة ما لم يسمعه. فضحك وقال: هات ما عندك، فقلت: إن الناس يتحدثون بأن العسكر الذي رحلت لتزيله أشبه بعساكر الإسلام من العسكر الذي تقصده به من قوم لا يرون طاعتك وأشبه بعساكر آبائك. وقد تحدثوا بأن الحسن قد بذل أكثر مما أريد منه فإن رأي سيدنا أن يقبل هذا ويرجع إلى دار ملكه ويزول ما يخافه من وثوب ابن رايق فإنه غير مأمون.

وكان الراضي قد أمر بأن ينادى على ابن رايق، ويطلب فكبست مواضع كثيرة - ومع هذا فإن الحسن بن عبد الله قد نظر إلى أقرب الناس من قبلك وهو قاضيك فجعله السفير له، والضامن عنه وإنه يلقاه فيتصرف بجميع ما يريده.

وهاهنا أيضًا أمر آخر، قال: وما هو؟ قلت: إذا يئس الحسن من قبول سيدنا لما بذل لم نأمن أن يصرف أمره إلى غيره، ويلقى نفسه عليه ويتقرب إليه، ويحظيه ببعض ما بذله، فيجعله صنيعة له ومادة لدهره وعدة لجدته ويكلم من يلقى نفسه عليه سيدنا في أمره ويسأله له ما يريده فيقبل قوله ويهب له أمره، فيحظى بما أردنا أن نحظى به -أعرض ببجكم- فما رأيته أطال الفكر عند شيء سمعه أكثر مما أطاله بعقب قولي هذا، وذكي واقف وحده يسمع بعض ما يجري.

ثم قلت: أما النثر فقد قضيت الحق فيه، وقد نظمت قصيدة إن أذن سيدنا أنشدته إياها، وهي في هذا المعنى فقال هات فأنشدته - وكان يقول إني سأسكن سر من رأى وأترك بغداد، وجعل يصور بيده ما يكتبه - فذكرت أيضًا مدح بغداد وأنشدته.

مُتَيَّمٌ مُتْلِفُهُ تَلَدُّدُه ... بَانَ لِبَيْنِ الْهَوَى تَجَلُّدُهُ

طَالَ عَلَيْهِ مَدَى الصُّدُودِ فَمَا ... يُبْصِرُهُ مِنْ ضَنَاهُ عُوَّدُهُ

قَدْ كَتَبَ الْحُبُّ بِالسَّقَامِ لَهُ ... نَظْمَهُ بِمَنْ أَتَى يُفَنِّدُهُ

أَوْرَدَهُ الْحَتْفَ مَا رِدٌ غَنِجٌ ... زَادَ عَلَى حُسْنِهِ تَمَرُّدُهُ

يَكَادُ مِنْ لِينِهِ وَرِقَّتِهِ ... تُخِلُّهُ لَحْظَتِي وَتَعْقُدُه

قَدِ ارْتَدَتْ بِالْجَمَالِ جُمْلَتُهُ ... كَمَا ارْتَدى بِالنَّدَى مُحَمَّدُهُ

خَلِيفَةٌ أُكْمِلَتْ فَضَائِلُهُ ... فَفَرْعُهُ طَيِّبٌ وَمَحْتِدُهُ

تَعَبَّدَ الْمَجْدَ فَهُوَ يَمْلِكُهُ ... طَارِفُهُ عِنْدَهُ وَمُتْلَدُهُ

قَدْ رَضِيَ الرَّاضِيَ الإِلَهُ لإِصْ ... ـلاَحِ زَمَانٍ سَوَاهُ مُفْسِدُهُ

فَهُوَ بِتَفْوِيضِهِ الأُمُورَ إِلَى اللَّـ ... ـهِ بِحُسْنِ التَّوْفِيقِ يَعْضُدُهُ

أَمَا تَرَى مَا كَفَاهُ مِنْ خَطَرٍ ... غَائِرُهُ مُعْجِزٌ وَمُنْجِدُهُ

لاَ يَبْلُغُ الْفِكْرُ كَشْفَ غُمَّتِهِ ... يَعُومُ فِي حَيْرَةٍ تُرَدِّدُه

وَهُوَ عَلَيْهِ فِي ذاكَ مُتَّكِلٌ ... بَشْكُرُ إِحْسَانَهُ وَيَحْمَدُهُ

وَلَنْ يُضِيعَ الإِلَهُ مُلْتَحِنًا ... إِلَيْهِ فِي الْخَطْبِ بَلْ مُؤَيِّدُهُ

يَسِلُّ رَأْيًا كَالسَّيْفِ وَقَفَتُهُ ... وَيَجْتَوِي سَيْفَهُ وَيُغْمِدُه

تَمَسُّكًا فِيهِ بِالْوَفَاءِ وَمَا ... تَقْصُرُ عَمَّا يُرِيدُهُ يَدُهُ

كَفَايَةُ اللهِ تَسْتَطِيفُ بِهِ ... تُنْحِسُ أَعْدَاءَهُ وَتُسْعِدُهُ

أَوْحَدَهُ اللهُ فِي فَضَائِلِهِ ... فَهُوَ مِنْ بَدْءِ الْكَمَالِ أَوْجَدَهُ

جَرَى عَلَى الصُّنْعِ وَالسَّعَادَةِ وَالْـ ... ـيُمْنِ لَهُ سِيرَةً وَمَقْصَدُهُ

جُيُوشُهُ حَوْلَهُ كَمَا حَدَقَتْ ... بِالْبَدْرِ بَدْرِ التَّمَامِ أَسْعُدُهُ

يَسُوسُهُمْ بِالسَّدَادِ حَاجِبُهُ ... وَهُوَ بِآرَائِهِ يُسَدِّدُهُ

كَأَنَّهُ مِنْهُ لَيْسَ يَبْعُدُ أَنْ ... يُشَبِّهَ مَوْلَىَ فِي الْعِزِّ أَعْبُدُه

لَكِنَّهُ فَايِتٌ بِهِمَّتِهِ ... كَمَا يَفُوتُ الْهِلَالَ فَرْقَدُهُ

وَأَيْنَ مِنْ زَاخِرِ الْعُبَابِ صَرِىّ ... يُخْفِي إِذَا جَاشَ فِيهِ مُزْبِدُهُ

أَرَى ذَكِيًّا ذَكَتْ خَوَاطِرُهُ ... فَلَمْ يَخُنْ فَهْمَهُ مُتَلَّدُهُ

سَيْفٌ عَلَى مَنْ عَصَاكَ مُنْتَقِدٌ ... تُطْفِي إِبِهِ طُغْيَانَهُ وَتُغْمِدُهُ

يَا خَيْرَ مَنْ لاَذَ ذُو الرَّجَاءِ بِهِ ... وَخَيْرَ مَنْ بِالنَّوَالِ يَرْفِدُهُ

وَمَنْ يَفُوتُ الْمُنَى تَطَوُّلُهُ ... وَيَقْتَضِيهِ الإِنْجَازَ مَوْعِدُهُ

أَمْوَالُهُ نَحْوَنَا مُوَجَّهَةٌ ... بِنَائِلٍ لاَ تُحَثُّ وُرَّدُهُ

يُعْلَى لَنَا الْحَالُ وَالْمَحَلُّ بِهِ ... فَلاَ سُؤَالٌ لَهُ نُرَدِّدُهُ

لَوْ جَازَ أَنْ يَعْبُدَ الْعِبَادُ سِوَى الْـ ... ـخَالِقِ كُنَّا لِلْبِرِّ نَعْبُدُهُ

عَبْدُكَ مَنْ قَدْ عَرَفْتَ نِيَّتَهُ ... لَمْ يَنْتَقِصْ سَاعَةً تَوَدُّدُهُ

يَسْأَلُ أَنْ يَسْتَبِينَ سَيِّدُهُ الـ ... ـرَّأْيَ بِفِكْرٍ لَهُ يُجَدِّدُهُ

وَمُؤْثِرُ الْحُقْنِ لِلدِّمَاءِ فَقَدْ ... تَاقَتْ إِلَيْهِ لِلْعَيْثِ شُرَّدُهُ

مُسْتَيْقِنًا نِعْمَةَ الْمُطِيعِ لَهُ ... يَحْمِلُ مَا فِي الضَّمَانِ يَعْقِدُهُ

يَقْبَلُ فِيهِ ضَمَانَ مَوْعِدِهِ ... فَلَيْسَ يُخْشَى مِنْهُ تَزَيُّدُهُ

إِنْ قَالَ قَوْلاً وَفَّى بِهِ عَجِلاً ... يَهْدِيهِ لِلرَّأْيِ فِيهِ أَرْشَدُهُ

فَكُلُّ وَقْتٍ لَهُ شَرِيطَتُهُ ... يُصْدِرُ هَذَا مَا ذَاكَ يُورِدُهُ

قَدْ يَسْمَحُ الْيَوْمَ بِالْمُرَادِ وَلاَ ... يُشْبِهُهُ فِي سَمَاحِهِ غَدُهُ

فِي كُلِّ صُقْعٍ مِنَ الْبِلادِ لَظًى ... مُسَعَّرٌ وَالغُوَاةُ تُوقِدُهُ

فَإِنْ نَجَا بَعْضُها بِمَقْصِدِهِ ... هُدَّ مِنَ الْبَعْضِ مَا يُشَيِّدُهُ

وَكُلُّهُمْ إِنْ أَقَامَ فِي يَدِهِ ... خِطامُهُ صَاغِرًا وَمِقْوَدُهُ

يَطْلُبُ هَذَا مَا ذاكَ يَطْلُبُهُ ... بِشافِعٍ عِنْدَهُ يُؤَكِّدُهُ

قَدْ يَسْتَحِيلُ الْوَلِيُّ ذَا عَنَتٍ ... تُقْدَحُ بِالْغِشِّ مِنْهُ أَزْنُدُهُ

وَيُصْبِحُ الْمُخْلِقُ الْوَلاَءَ لَهُ ... مِنْ طَاعَةٍ ثابِتٍ تُجَدِّدُهُ

بَغْدادُ حِصْنُ الْمُلُوكِ تُؤْمِنُهُمْ ... مِنْ كُلِّ بَاغٍ يُخْشَى تَوَرُّدُهُ

وَأَهْلُهَا فِي الْخُطُوبِ جَيْشُهُمُ ... بِغَيْرِ رِزْقٍ لِلْجَيْشِ يَنْقُدُهُ

فَأَيْنَ لاَ أَيْنَ مِثْلُهَا بَلَدٌ ... بِحافِظٍ مُلْكُهُ يُؤَكِّدُهُ

فَلا تُرِدْ غَيْرَهَا بِهَا بَلَدًا ... أَسْلَمُ سَيْرِ الْمُعِذِّ أَحْمَدُهُ

والأَمْرُ مِنْ بَعْدَ ذَا وذَاكَ إِلَى ... مُعَوَّدٍ لِلصَّوابِ يُوجِدُهُ

فَإِنَّهُ أَعْلَمُ الْمُلُوكِ بِمَا ... يَفْعَلُ وَاللهُ فِيهِ يُرْشِدُهُ

فقال نعم أنظر في هذا إن شاء الله.

واستؤذن للقاضي فخرجت فلقيته وحدثته بما جرى وقال أنا أؤكد لهذا، فدخل فأطال ثم خرج فقال ما في هذا الرجل حيلة استمع مني كما قلت في نحو معناك فلما خرجت الساعة تقدم إلي ذكي بأن تقدم النوبة ليرحل نحو تكريت. ورحل من غد يومنا لك وصرنا في مرحلتين إلى تكريت، فنزل دور بني جابر النصراني وأقام أيامًا، والأخبار واردة من بغداد بقوة أمر ابن رايق وكتب الحسن بن عبد الله متواترة بإزاحة العلة في جميع ما يرادِ منه.

فحدثنا الراضي بالله أنه سمع الديالم في المنزل الذي رحل منه إلى تكريت - وقد مر قوم منهم خلف مضربه فصاح بهم الخدم- يتكلمون بكلام قبيح، وقال أما لهؤلاء دين ولا عليهم طاعة؟ وجرى ذكر ابن رايق وقوة أمره، فغمزني ذكي الحاجب في كلامه وظننت أنه بما سمع من الديالمة قد فش عزمه، فقلت: يا أمير المؤمنين، بغداد دار المملكة ووطن الخلافة وفتقها لا يتلافى. فقال: إنما كانت بغداد كذا حيث كان في بيت المال بها عشرة آلاف ألف دينار في أيام المعتضد، وضعف لها في أيام الكتفي، فأما ولا مال بها فهي كسائر البلدان، فقلت فيها ما هو أجل من المال، الأميران بلغ الله سيدنا ما يأمله في نفسه وفيهما، وفيها حرم الخلافة وذخائرهن. وأعانني العروضي بكلمة فصاح عليه فسكت، ثم أقبل علي فقال: يا هذا كم تنصحني في هذا الأمر وما استنصحتك، وتشير علي وما استشرتك؟! فقلت: خطأ والله من عبدك وفرط إشفاق، لا أعود لشيء من هذا أبدًا.

وقمت إلى ذكي فقلت له أومأت إلي بالقول فنالني ما رأيت، فقال لي ما بالصواب أن يعيد أحد في هذا شيئًا. وكانت نوبتنا هي النوبة التي تصل إليه ونأنس بها ويديم إعطاءها والإحسان إليها، ونوبة بني المنجم مجفوة لا يصلون إليه إلا في المدة البعيدة، فلما سار في الماء يريد تكريت سرنا نحن على الظهر وطلبنا فلم يجدنا.

وسار بنو المنجم في الماء وتعرضوا له فجلسوا معه، فكايدنا بهم وساواهم بنا، وقال: السفر لا نوبة فيه لقوم دون قوم، وجعلوا إذا خلوا يشعثون حال من قدروا على ذكره منا عنده وهو يطلع بعض ذلك لنا، حضرنا وغابوا، يغري بعضنا ببعض ووصلهم سرًّا ولم يصلنا، فأجمع أصحابنا علي أن أعمل شعرًا في ذلك، فأوصلت إليه رقعة فيها -وكان أعطاهم خمسة دنانير لكل واحد في كل دينار عشرة دنانير-:

يَـــا مُـــذِيقِي غُـــصَّةَ الْكَمَـــدِ ... مُـــشْعِلًا لِلنَّـــارِ فِي كَبِـــدِي

أَلِـــذَنْبٍ كَـــانَ هَجْـــرُكَ لِي ... أَوْ دَلَالَ الْغُـــنْجِ والْغِيَـــد

حِـــيْنَ أَزْمَعْـــتَ الرَّحِيـــلَ ضُـــحًى ... أَزْمَعَـــتْ رُوحِـــي عَـــنِ الْجَـــسَدِ

مـــا أُبَـــالِي مَـــا يَفُـــوتُ إِذَا ... ظَفِـــرَتْ بِالوَصْـــلِ مِنْـــكَ يَـــدِي

قُـــلْ لِخَـــيْرِ النَّـــاسِ كُلِّهِـــم ... لا أُحَـــاشِي فِيـــهِ مِـــنْ أَحَـــدِ

الَّـــذِي يَـــرْضَى الإِلـــهُ بِـــهِ ... مُـــذْهِبًا لِلْغِـــيِّ بِالرَّشَـــدِ

حَاسِـــدِي فِي حُـــسْنِ فِعْلِـــكَ بِي ... غَـــيْرُ مَعْـــذُولٍ عَـــلَى الْحَـــسَدِ

قَـــدْ دَهَتْنِـــي الآنَ دَاهِيَـــةٌ ... وَسْـــمُهَا بَـــاقٍ عَـــلَى الأَبَـــدِ

أَنْـــتَ يَـــا أَعْـــلَى الْمُلُـــوكِ يَـــدًا ... عُـــدَتِي فِيهَـــا وَمُعْتَمَـــدِي

تَـــوْبَتِي قَـــدْ ذَلَّ جَانِبُهَـــا ... بِيـــعَ مِنْهَـــا النَّـــوْمُ بِالـــسُّهْدِ

ضَـــعُفَ الحرمَـــانُ قُوَّتَهَـــا ... بَعْـــدَ حُـــسْنِ الأَيْـــدِ والْجَلَـــدِ

لا تُطِـــعْ فِينَـــا الْوُشَـــاةَ فَقَـــدْ ... جَعَلُونَـــا ضُـــحْكَةَ الْبَلَـــدِ

حِـــينَ فَـــازُوا دُونَنَـــا بِيَـــدٍ ... مِنْـــكَ واسْـــتَوْلَوا عَـــلَى الأَمَـــدِ

وَرَأَيْنَاهَـــا مُعَايَنَـــةً ... إِنَّ هَـــذَا مُنْتَهَـــى الْكَمَـــدِ

بَعْـــدَ أَنْ كُنَّـــا بِفَـــضْلِكَ فِي ... طِيـــبِ عَـــيْشٍ دُونَهُـــمْ رَغَـــدِ

فَأَنِلْنَـــا مَـــا أَنَلْـــتَهُمُ ... خَمْـــسَةً تُـــوفِي عَـــلَى الْعَـــدَدِ

أَوْ فَزِدْنَـــا مِثْـــلَ عَادَتِنَـــا ... لَـــيْسَ غَمْـــرُ الْجُـــودِ كَالنَّمَـــدِ

عِنْـــدَنَا مِـــنْ فِعْلِهِـــمْ تِـــرَةٌ ... فَأَزِلْهَـــا الْيَـــوْمَ بِـــالْقَوَدِ

لَمْ تَـــزَلْ بِالْبَـــذْلِ تَبْـــدَأُنَا ... فَاجْعَلَنْهَـــا الآنَ دُونَ غَـــدِ

وَلَـــمْ يَكُنْ إِنْ شِـــئْتَ مُكْتَـــتِمًا ... إِنَّنـــا مِـــنْهُمْ عَـــلَى رَصَـــدِ
وَأَزِلْ نَحْـــسًا بِـــرُؤْيَتِهِمْ ... طَالِعًـــا مِـــنْهُمْ بِمُفْتَقَـــدِ
وَعَلَـــيْهِمْ لا عَلَيْـــكَ بِهِـــمْ ... دابِـــرَاتُ الـــسُّوءِ وَالنَّكَـــدِ

فما عوضنا بشيء وأقام على كياده لنا، وأقام أيامًا بتكريت، ثم رحل منها يريد الموصل، فنزل منزلًا على أربعة فراسخ، واستهل هلال صفر، ودخل بجكم قبل ذلك إلى الموصل، ووافى الخبر بظهور ابن رايق يوم الأربعاء لليلتين أو لثلاث خلون من صفر وأنه دخل إلى بغداد كأنه لم يكن بها من ناحية باب قطربل ومعه ألف من القرامطة فيهم رافع كانوا في عسكر الراضي، فاستحقوا فلم يعطوا وأبطئ في أمرهم، وكان بجكم لا يحب كونهم مع الخليفة في جملة حاجبه، فانصرفوا إلى بغداد فكانوا سبب ظهور ابن رايق، وقصد داره فلم يصل إليها، فخرج إلى المصلى وكان مستترًا في دار كاتبه السر من رأي[1] ونادى مناديه أنه قد زاد الفرسان اللاحقين به خمسة دنانير كل واحد منهم، وأنه يطلق لهم عاجلًا رزقه كاملة ويزيد الرجالة دينارًا دينارًا، ويطلق لهم نوبتين معجلتين، ويكون ذلك بلا نقصان ولا مصارفة.

ووافى جعفر بن ورقاء، فنزل في الحلبة في دار الخليفة، ونزل معه أحمد بن خاقان، وضبط أحمد بن بدر الشرابي البلد جهده وكانت إليه الشرطة، وأعطت أم الراضي مالًا أنفق في رجاله وفرسانه وقصد أصحاب ابن رايق دار بجكم على دجلة فمنع عنها أصحاب كان لهم فيها، ثم انهزموا وخرجوا هاربين يريدون سر من رأى، وسلموا الدار فنهبت وأحرقت، وتحدث الناس بأن ابن مقاتل حمل إلى ابن رايق مالًا فأعطى الفرسان كل واحد منهم خمسة دنانير صلة

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: السرمري

وهي الزيادة، وأعطى الرجالة دينارًا دينارًا، وجاء إلى دار السلطان فقوتل عنها وقتل من الفريقين جماعة.

وانصرف ابن رايق إلى المصلى واستأمن قوم من البجكمية فيهم يارخ وصيغون فأحسن إليهما، وتبع أصحاب ابن رايق من كان في دار بجكم ورئيسهم تكينك فأخذوا منهم دواب وتفرقوا، وجاء خبر محمد بن ينال الترجمان ومعه جماعة كانوا بواسط بأن يقصد بغداد فوافاها واجتمع مع ابن بدر الشرابي وحاربهم ابن رآيق وأصابت ابن بدر ضربات، وحمل إلى منزله وذلك لثمان ليال خلت من صفر، فمات في منزله بعد ثلاث.

وملك ابن رايق بغداد، وظهر ابن مقاتل وحمل إلى ابن رايق مالًا فأعطى القرامطة رزقة كاملة بزيادة خمسة دنانير لكل واحد منهم، ودخل إلى داره المعروفة بدار مؤنس فأقام فيها ووجه إلى دار الخليفة وإلى أم الراضي فسكن منهم، وقال لهم كونوا على أمركم. ونهبت دار علي بن خلف بن طياب في الجانب الغربي بقرب الجسر ودار أخ له وأخذ منها مال ومتاع ووجد لبجكم مال فأخذ وانحاز ابن ورقاء، وقصد الموصل بعد أن قاتل أشد قتال، وما أبلى أحد بلاءه وبلاء ابن بدر الشرابي، ونادى ابن رايق بأمان البجكمية وولى شرطة بغداد ابن يزداد قائدًا من قواده.

وفرض قومًا من العيارين فأعطاهم دينارًا دينارًا وجاءه ساجية وحجرية فقبلهم ووعدهم ما أحبوا، ووجه إلى أبي القاسم الكلوذاني فأخذ منه مالًا كان قد جمعه للسلطان، وملك العيارون البلد، وكتب لابن رايق في هذه الحال أبو غالب كاتب صافي الخازن وعلى جيشه ابن القلانسي. وطلب أبا العباس الأصبهاني فاستتر، وكان ابنه ظاهرًا بين يدي ابن رايق، وخلع على صيغون ويارج وركبا في شارع الجانب الشرقي حتى رآهم الناس وبين أيديهم بدور دارهم على أكتاف الرجال، ووجه إلى دار السلطان فأخذ ما وجد من الخزاين.

ووصل محمد بن ينال الترجمان إلى النهروان ومعه أحمد بن نصر القشوري، وسياتنكول، وإبراهيم بن خلف بن طياب، وعبد الله الشيرازي، ومؤنس غلام هنكر في خلق عظيم، فتوجه إليهم ابن رايق فواقعهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر، ثم حجز الليل بينهم، وحاربهم يوم الاثنين لتسع بقين منه، فظفر بهم وغنم هو وأصحابه غنيمة عظيمة من الدواب والحلي والمال والأمتعة، وكان ابن رايق قد رأى كثرتهم فزال طمعه في مقاومتهم فدس إليهم جماعة من القرامطة وواطأهم على أن يستأمنوا إليهم فإذا واقعهم صيحوا بهم من عسكرهم فكان هذا سبب الهزيمة وقتل سياتنكول وأصابت أحمد بن القشوري ضربة في وجهه وجيء به أسيرًا إلى ابن رايق فمن عليه.

وأسر مؤنس الهنكري فهجنه ابن رايق وشتمه فعدا عليه بعض القرامطة فقتله وهرب الترجمان فلم يعرف له خبر حتى وافى الموصل على حالة قبيحة، وكان بجكم يظن أنه قتل فوجه إليه بما لبس وبدواب حتى دخل الموصل، ونادى ابن رايق بعد الوقعة ببراءة الذمة ممن آوى الترجمان، أو ابن خلف بن طياب أو عبد الله الشيرازي.

ودخل البريدي إلى واسط في هذا الوقت، وعظم أمر العيارين ببغداد، وأخذوا ثياب الناس من المساجد والطرقات إلى أن ركب ابن يزداد وأخذ جماعة منهم فضربهم بالسياط. ووجد لبجكم عشر بدر دنانير في درب الزعفران فأخذت، ووافى فاتك صاحب ابن رايق في جيش فدخل من باب الأنبار في تعبئة حسنة، وذلك في يوم الخميس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ودخل معه لؤلؤ غلام المتهشم، وعلى أعلامه لؤلؤ الرائقي، ولما ظن ابن رايق وجاءه فاتك، وصار إليه مال بجكم الذي ذكرناه أفكر في الأموال العظام وكاتب في أمر الخلافة جماعة، ووجه إلى الحسن والحسين ابني الفضل بن المأمون فأخذهما إلى داره وقدر مال البيعة فإذا هو على التقليل ثمانمائة ألف

دينار، فقال له ابن مقاتل: نحن لا نملك عدد هذه دراهم، فكيف نحتالها دنانير؟ فرد ابني المأمون منازلهما وأضرب عن هذا الرأي.

ووجه محمد بن يحيى بن شيرزاد إلى الموصل في أشياء أرادها فوصل إلى الراضي بالله وإلى بجكم ووجه الراضي بالله القاضي عمر بن محمد برسالة إلى ابن رايق ولزمه وكان يخلو به وبابن مقاتل وربما حضر ابن سنكلا، وألزم ابن مقاتل الأمر، وقال: إن السلطان يعلم أن هذا يتصرف برأيك ومتى أعنتني على أمر الصلح وقع لك ذلك أجمل موقع. فاتفق الرأي على خروج ابن رايق إلى الشام واليًا عليها. فاقتصر على من أراد من أصحابه وأخرج مضربه، وكان من استغنى عنه ابن رايق لحق بالبريدي مثل جنى الحمداني وجماعة قواد وفرسان، وخرج ابن رايق عن بغداد يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر، وركب بشري الأثرم غلام الراضي بالله، وكان أنفذه الراضي معه لشرطة بغداد إذا رحل ابن رايق عنها، فنادى في الذعار وأخذ جماعة من العيارين وطاف في الجانبين فسكن البلد بعد افتتان عظيم.

وأظهر القاضي كتابًا ورد عليه من السلطان وأمر بأن يقرأه عدوله في مجالسهم بأن السلطان لم يؤاخذ أحدًا من أهل بغداد بشيء مما جرى، وأنه إذا ورد أحسن إليهم كل الإحسان ولم يطلق يد بجكم عليهم، وأمر أن لا يتبع أحد ولا يعنت فسكن الناس إلى ذلك وسروا به.

(رجعنا إلى أمر الراضي بالله رحيله، من تكريت ونزوله على أربعة فراسخ).

ووافى الخبر بظهور ابن رايق وقصده الدار، وكان الراضي في طيار، وقد طلبنا وما وصلنا إليه بعد ورود هذا الخبر، فجاء القاضي وابتدأ بكلمه ويشير عليه بالتوقف والنظر في الرجوع فأسبل غشاء الطيار بينه وبينه، وأمره

بالانصراف فانصرف، ودعا بذكي حاجبه وقال: أنا أعبر إلى الجانب الغربي الساعة فاعبر بدوابي ودوابك ومن تبعك من الغلمان فإني أركب البر حتى ألحق بالموصل، وليس الناس في الماء، ويكون الذي يسير بهم ويحفظهم سعيد بن حفيف السمرقندي، ويشاور القاضي في جميع ما يفعله.

وعبر من وقته وعبر ذكي وجماعة من الغلمان والفرسان، فحدثنا هو لما وصلنا إليه إلى الموصل أنهم كانوا كلهم نحو خمسين ومائة وأن الهيبة حرسته بعد حفظ الله من أن يتخطف وأنه جاع في الطريق ويم يجد ما يأكل، وأن خيرًا غلام ذكي الحاجب كان ربما طبخ له القدر والقدرين فيأكلها إلى أن وافى الموصل في أربعة أيام وقد ماتت الدواب وهلك أكثر من كان معه، فنزل دار الحسن ابن عبد الله، وسار سعيد بن حفيف بالناس وحفظهم أحسن حفظ، على أنه ليس معه أحد ولا له معين، وكان بنفسه وغلمانه وغلمان من معه في الزواريق يمنع الأعراب والزواقيل، ويحرس الناس بنفسه ولا ينام الليل، ويأمر بإيقاد النار وضرب الدبادب إلى أن يصبح.

وكنا نسير في سفننا لصعوبة الطريق الفرسخين في اليوم وأقل وأكثر، وكنت أنا مع ابن حمدون في زورق وكان معه طيار ومعي سميرية بأربعة مجاذيف فغلط أصحاب السميريات ليلًا، فربطوا على بعد من العسكر وكبسهم القياقنة وأخذوا جميع ما كان في السميريات ولم يبق لي شيء كان في سميريتي إلا ذهب، ثم دخل بعد ذلك الماء إلى زورقنا حتى كاد يغوص وسقطنا إلى الماء، فمن الله علينا بأن رجالة كانوا معنا في الزورق وحملوني وحملوا ابن حمدون حتى صرنا إلى الشط، وانتظرنا الطيار حتى جاءوا به وأخذ ما في الزورق ومد إلى الشط حتى أصلح، وكان قد انتقب في عدة مواضع.

ووافى راغب خادم الراضي بالله من الثغر، وكان قد شهد الفداء إلى الموصل، فوجه به الراضي فلقينا بين الحديثة والسن فسلمنا عليه وكانت معه

دواب فحمل القاضي عليها لأن الراضي أمره بذلك وأراد أن يتقدم وصوله وتبعه من كان له مركوب، وبقينا نحن أيامًا كثيرة إلى أن وصلنا إلى الموصل، ودخلنا إلى الراضي بعد عشرين يومًا من مفارقتنا إياه، وكان في نفسي ما قاله الراضي حين أنشدته قصيدتي الضادية وقت جلوسه: هذه حمتك رميت بها. وأردت أن أعمل قصيدة أشكو فيها غرقنا وما نالنا فقلت والله لأجعلنها ضادية ليعلم أن تلك لم تكن حمتي، وأنه قد بقيت لي قصيدة وأنا في الزورق مع ابن حمدون، نحو تلك القصيدة في الطول وهي:

أَبَغِضتَهُ مِنْ بَعْدِمَا بُذِلَ الرِّضَا ... هَذَا تَجَنٍّ مِنْ حَبِيبٍ يُرتَضَى

لاَ تَجْزَعَنْ لِلْبُعْدِ تُوعَدُهُ غَدًا ... فَاللهُ يَصْرِفُهُ بِما فِيهِ قَضَا

ظُلِمَ الحَبِيبُ فَأَظْلَمَ الْبَيْتُ الَّذِي ... أَمَّتْ مَطَايَاهُ بِهِ ذات الأَضَا

قَدْ قَالَ بَشَّارٌ وكَانَ مُسَدَّدًا ... يَحْوِي المَعَالِي إِنْ رَمَى أَوْ أَنْبَضَا

قَدْ ذُقْتُ أُلْفَتَهُ وذُقْتُ فِراقَهُ ... فَوَجَدْتُ ذَا عَسَلًا وذَا جَمْرَ الغَضا

خُذْ مِنْ زَمانِكَ ما صَفَا لَكَ قَلَّما ... يُغْنِيكَ غُمُّكَ بِالتَكَدُّرِ إِذْ مَضا

واصْبِرْ عَلَى غَرَقٍ بِنُعْمى نلْتَهَا ... إِنَّ الزمانَ لُقْتضٍ مَا أَقْرَضا

فَهَوَيْتَ فِي لُجٍّ عَلاكَ عُبابُهُ ... لا بُدَّ أَنْ تَلْقَى الَّذِي لَكَ قُيِّضَا

إِنْ قُمْتَ فِيهِ لَمْ تَطُلْهُ لِغُزْرِهِ ... ورَأَيْتَ تَحْتَ الرِّجْلِ مِنْهُ مُدْحِضَا

وَتَسَرَّعَتْ مِنْهُ إِلَيْكَ حِجَارَةٌ ... تَذَرُ الصَّحِيحَ مِنَ الْعِظَامِ مُرَضَّضَا

وَكساكَ مِنْ يَدِهِ وَلَمْ تَسْتَكْسِهِ ... عُشْرًا يُؤَلِّفُهُ المُدُودُ وَعِرْمِضا

نَجَّاكَ مَنْ نَجَّا بِلُطْفٍ يُونُسًا ... مِنْهُ وكَانَ لِقَبْضِ رُوحِكَ مَعْرِضا

هَذَا وَقَدْ تَلَمَ الزَّواقِلُ جَانِبِي ... فَأَفَضْتُ دَمْعًا عِنْدَ ذَاكَ مُغَيَّضا

أَبْكِي كِساءً كانَ أَوْثَقَ عُدَّتِي ... إنْ أَخصرَ البَرْدُ العِظامَ ونَقَّضَا

وَمُخَدَّةً قَدْ كانَ يَألفُ لِينُها ... خَدِّي فأَضْحى الجِسْمُ مِنها مُمَرَّضا

وَنَفِيسَ فَرْشٍ كالرِّياضِ نُقُوشُ ... ما كانَ من دُونِ الرِّياشِ مُرَحَّضَا

وَمُجَمَّعًا قَدْ كُنْتُ أَجْمَعُ آلَةً ... فِيهِ وكانَ مِنَ البِلاءِ مُفَضَّضَا

والصُّفْرَ أَبْكِي كالنُّضارِ وَشَمْعَةً ... زانَتْ يَدُ الماشِي بِهَا والمِقْبَضَا

صَرَّحْتُ بالشَّكْوَى إليكَ تَأَسِّيًا ... بِنَدى يَدَيْكَ إذا غَرِيبٌ عَرَّضا

فَلأَنْتَ أَعْلَى فِي المُلُوكِ مَحَلَّةً ... وأَجَلُّ مَن رَاشُ العُبَيْدَ وَأَنْهَضا

مِنْ بَعْدِ ما غالَ المَشِيبُ شَبِيبَتِي ... وَنَضا لِباسَ تَجَمُّلِي فِيما نَضا

وَأَحارَنِي مَرَضًا وَأَوْهَنَ قُوَّتِي ... فَغَدَوْتُ مِنْهُ وَقَدْ صَحِحْتُ مُمَرَّضا

وإذا دَنَتْ سَبْعُونَ مِنْ مُتَأَمِّلٍ ... دانى وَلَمْ يَرَ فِي اللَّذاذَةِ مَرْكَضا

وَجَفاهُ نَوْمٌ كانَ يَألفُ جَفْنَهُ ... قِدْمًا وَأَضْحى لِلحُتُوفِ مُعَرَّضا

وإذا بَلَغْتُ إلى الأمامِ مُسَلِّمًا ... ورَأَيْتُهُ زَالَ التَّخَوُّفُ وانْقَضى

وَنَسِيتُ رَوْعَاتِ الإِزْجافِ فَشا ... ما زِلْتُ للإِشْفاقِ فِيهِ مُرْمَضا

ذادَتْ مَوارِدُهُ الكَرى عَنْ مُقْلَتِي ... وَأَبَى عَلَيَّ حِذَارُهُ أَنْ أُغْمِضا

فَعَلَيَّ نَذْرٌ إِنْ رَأَيْتُكَ سالِمًا ... صَوْمٌ وعِتْقٌ عاجِلٌ لا يُقْتَضَى

بِمُحَمَّدٍ رَضِيَ الإِلهُ خَلِيفَةً ... فِي الأَرْضِ فَهُوَ بِذاكَ راضٍ مُرْتَضَى

جاءَتْهُ طَوْعًا لَمْ يُسَبِّبْ لَفْظَهُ ... فِيهَا ولاَ أَضْحى لَهَا مُتَعَرِّضا

فَهُوَ الحَقِيقُ بِهَا المُعانُ بِقُوَّةٍ ... فِيهَا بِحُكْمٍ فَاصِلٍ لَنْ يُدْحَضا

أَللهُ أَقْبَلَ لِي بِوَجْهِ نَوالِهِ ... فَرَفَضْتُ وَجْهَ الدَّهْرِ لَمَّا أَعْرَضا

بَدْرٌ يُضِيءُ دُجى الظَّلامِ وَلَمْ يَزَلْ ... لِسَوادِ ما تَجْني الخُطُوبُ مُبَيِّضا

بِكْرُ الزَّمانِ فَلَيْسَ يُنْتَجُ مِثْلُهُ ... أَبَدًا وَلا يُلْفَى بِهِ مُتَمَخِّضا

عالِي المَحَلِّ بَنى لَهُ آباؤُهُ ... شَرَفًا أَبَتْ أَرْكانُهُ أَنْ يُنْقَضا

مَنْ شامَ عِزَّكَ ذَلَّ دُونَ مَنالِهِ ... أَوْ رامَ ما رَفَعْتَ مِنْهُ تَخَفَّضا

أَحْسَنْتَ حَتَّى ما نَرَى مُتَسَخِّطًا ... يَشْكُو الزَّمانَ وَلا نَرَى لَكَ مُبْغِضًا

كَمْ مُبْغِضٍ حُطَّتْ إِلَيْكَ رِكابُهُ ... نالَ الغِنَى عَجِلًا فَأَغْنَى المُبْغِضا

بِعُلُوِّ فَخْرِكَ فِي المَفاخِرِ يُعْتَلَى ... وَبِنُورِ هَدْيِكَ فِي الدِّيانَةِ يُسْتَضا

وَجَلِيلِ خُطْبٍ عابَ مِنْكَ عَزِيمَةً ... فَأَتَى إِلَيْكَ بِما هَوِيتَ مُفَوَّضا

وَمَضَتْ بُرُوقٌ فِي العِراقِ فَأَخْلَبَتْ ... وَرَأَيْتُ بُرْقَكَ صادِقًا إِذْ أَوْمَضا

قَزَعٌ أَرَذَّ فَما غَذَتْ أَخْلافُهُ ... غَرْسًا وَلا هُوَ بِالجَمائِلِ رُوِّضا

وَتَداعَبَتْ بِذَوِي الضَّلالَةِ هِبْوَةٌ ... أَبْقَتْ لَهُمْ أَسَفًا وَخَوْفًا مُمْرِضا

وَسَيَكْشِفُ الهَبَواتِ رَبُّكَ نِقْمَةً ... تَدَعُ البِناءَ مِنَ الضَّلالِ مُقَوَّضا

سَتَرَى القِيامَ بِهِ قُعُودًا عاجِلًا ... فَزِعًا وَيَرْجِعُ ساكِنًا مَنْ حَرَّضا

وَيَصِحُّ مِنْ غَمَراتِهِ مَنْ لَمْ يَزَلْ ... فِيما قَضَيْتَ مِنَ الأُمُورِ مُمَرِّضا

وَيَعُودُ ساعٍ فِي الجَهالَةِ عائِرًا ... لا يَسْتَطِيعُ مِنَ النَّدامَةِ مَنْهَضا

وَيَرَى غَوِيٌّ رُشْدَهُ فَيُثِيمُ ما ... قَدْ كانَ مِنْ نَعَمِ الضَّلالَةِ رَبَّضا

وَيَفُلُّ غَرْبَ جُمُوعِهِمْ لَكَ حاسِمٌ ... مِنْ جَيْشِ رَأْيِكَ كَالسِّهامِ المُنْتَضى

وَيُذِيقُهُمْ جُرَعَ المَنايا بَجْكَمٌ ... وَكَذاكَ عادَةُ بَجْكَمٍ فِيما مَضَى

سَيْفُ الخِلافَةِ وَالمُبِيرُ عَدُوَّها ... بِسَدِيدِ عَزْمٍ صائِبٍ إِنْ أَعْرَضا

أنحى عَلَيْهِمْ بِالسُّيُوفِ فَخِلْتَهُمْ ... لِتَنَاثُرِ الأَعْضَاءِ حَصْبَاءَ الفَضَا

دَلَفَ الرِّجَالُ إِلَيْهِمْ فَكَأَنَّمَا ... كَانُوا نِسَاءً حِينَ دُمُّوا حُيَّضَا

فَعَفَوْتَ عَنْ طَلَبٍ لَهُمْ فَتَبَسَّطُوا ... ثِقَةً وَكَانَ نَجَاؤُهُمْ مُتَقَيِّضَا

كَيْفَ التَّوَرُّطُ فِي ظَلَامِ ضَلَالَةٍ ... وَالصُّبْحُ فِي سُبُلِ الهِدَايَةِ قَدْ أَضَا

يَا وَاحِدَ الكَرَمِ الَّذِي نَلْقَى بِهِ ... وَجْهَ الزَّمَانِ إِذَا تَسَوَّدَ أَبْيَضَا

خُذْهَا إِلَيْكَ قَوَافِيًا قَدْ لُبِّسَتْ ... رَقْمًا أَبَى تَحْسِينُهُ أَنْ يُرْفَضَا

كَانَتْ مُجَمَّعَةَ الظُّهُورِ نَوَافِرًا ... فَأَتَتْكَ لَيِّنَةَ المَقَادَةِ رُيَّضَا

لَفْظًا أَلِيفًا لِلْقُلُوبِ مُحَبَّبًا ... لَمْ يُلْفِ وَقْرًا فِي المَسَامِعِ مُبْغَضَا

مِنْ شِعْرِ مَقْصُورِ المُدَى مُتَكَلِّفٍ ... إِنْ رَامَ نَهْجًا فِي طَرِيقٍ أُدْحِضَا

وَكَأَنَّهُ ثِقْلًا فِرَاقُ أَحِبَّةٍ ... نَادَى بِهِ دَاعِي الشَّتَاتِ وَحَضَّضَا

بَلْ مُرْسَلًا طَبْعًا فَسِيحًا ذَرْعُهُ ... قَدْ شَفَّ ذَا البَاعِ القَصِيرِ وَأَرْمَضَا

وَإِذَا أَمَالَ إِلَيْهِ سَمْعًا صَاعَدَتْ ... أَنْفَاسُهُ أَسَفًا عَلَيْهِ وَأَبْغَضَا

أَحْذَاكَهُ مَنْ لَا يَزَالُ ضَمِيرُهُ ... عَمَّا كَرِهْتَ مِنَ المَذَاهِبِ مُعْرِضَا

أَفْنَى الزَّمَانَ بِخِدْمَةٍ لَكَ آمِلًا ... مَا نِلْتَهُ فَأَنَلْهُ غَايَاتِ الرِّضَا

وَمَدَائِحٍ سَبَقَتْ إِلَيْكَ بِأَسْرِهَا ... يَأْتِيكَ قَائِلُهَا بِهَا مُتَعَرِّضَا

مَا شَرَّفَتْهُ خِدْمَةٌ لَكَ قَبْلَهَا ... حَتَّى مَلَكْتَ فَدَسَّهُنَّ مُعَرِّضَا

وَأَصَابَ مَرْعَى فِي فِنَائِكَ مُمْرِعًا ... فَأَخَلَّ فِيهِ بِالحُظُوظِ وَأَحْمَضَا

إِذْ سَيْفُ عَزْمِكَ كَامِنٌ فِي جَفْنِهِ ... أَرْجُو انْتِضَاكَ لَهُ وَلَمَّا يُنْتَضَى

هَذِي سَوَابِقُ لَا يَمُتُّ بِمِثْلِهَا ... مَنْ قَدْ أَتَى خَلْفَ السُّكَيْتِ مُرْكِضَا

فَأَفِدْ وَعَوِّضْ مَادِحًا لَكَ رَاجِيًا فَلأَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ أَقَالَ وَعَوَّضَا

فلما أنشدته إياها قال: صدقت يا صولي قد بقيت لك حسنات، وهذه الضادية أفحل كلامًا من تلك، وتلك أنعم لفظًا وكلتاهما في نهاية الجودة. فقلت: أنا والله يعلم سيدنا بالشعر أحترس إذا مدحته. فضحك.

وأقمنا أيامًا بالموصل وبجكم قد كان واقع الحسن بن عبد الله فهزمه ثم رجع بجكم إلى الموضع، ووقع بين أصحابه وبين أهل الموصل حرب فقتل جماعة من التجار ونهبوا، فكان من بجكم وأصحابه أمر قبيح حتى وجه إليه الراضي في ذلك فأمر أصحابه أن يكفوا، وطولب علي بن خلف بن طياب بالأموال الذي ضمنها فما قدر إلا على الشيء اليسير الوتح، فوجه إلى قرى بعيدة فيحمل حنطة وشعيرًا ويعز عليه من يشتريه. وكان الطالقاني صاحب بجكم، ويكنى أبا حامد في يد الحسن بن عبد الله فأطلقه وفارقه على أن يصلح الأمر بينه وبين بجكم ففعل ذلك، وكان بينهم ما غمض على الراضي فلم يعلم حقيقته.

وكلم بجكم الراضي في الحسن بن عبد الله أن يقبل الضريبة التي عليه ويرحل إلى بغداد، فقال له إني قد اتفقت مذ غرمت على الحركة إلى وقتي هذا مائة ألف دينار. وأخذ ابن رايق مثلها من بغداد فلم يزل يسأله إلى أن أجابه. وكان الراضي بالله وصل الجلساء ولم يصلني، لما في قلبه علي من تكلفي المشورة. وعزم على الرحيل فمنعته الإضاقة، ثم فورق على مال يسير قدروه لنفقته إلى بغداد، على أنه يجيء من عند الحسن بن عبد الله، فرحل عن الموصل وأقام على نحو فرسخين منها ينتظر المال، واستبان الصواب فيما كان أشير عليه به، وضاق بمقامه ذرعًا.

وكان في حراقة يدخل إليه فيها، فأمر راغبًا الخادم أن يدخلني إليه مفردًا

قبل وقت مجيء الجلساء، فأوصلني إليه فقال لي: كأني بك، وقد قلت في نفسك إني خطوت الرأي، وتركت الصواب. فقلت: والله ما دار لي هذا بفكر، ولقد شغلني الغم عن ذلك حتى أرى سيدنا في دار ملكه مداومًا لسروره على عادته، فقال: أما كنت حدثتني أن يحيى بن خالد البرمكي، قال: لا أحمد نفسي على رأي ابتدأته بخطأ فآل إلى صواب؛ لأني بالخطأ ابتدأته ولا علم لي بمآله، وكذلك لا أذمها على رأي ابتدأته بصواب فآل إلى خطأ فأنا كذلك ابتدأت أمري بصواب ولا أعلم المغيب. فقلت يوفق الله أمير المؤمنين ويعوضه ويبقيه.

فقال الراغب ادفع إلى الصولي ما كان قبضه أصحابه ولم يقبضه، وزده مائة دينار، فأعطاني ألف درهم ومائتي دينار. وكان قبل أن يرجل من الموصل طلبني وقت الظهر فدخلت إليه، وكان قيد على كتاب بما كان من أمر ابن رايق مع ابني المأمون، وكتب إلى ذكي كتاب مثله، ووردت كتب الناس بذلك.

وكان الرجالة المصافية يطالبون بأرزاقهم فأخروا فغضبوا وصاحوا: قد مضى القرامطة ففازوا بابن رايق، ونمضي نحن فنأخذ بيعة ابن المأمون. إلى أن وجه الحاجب فردهم، وضمن لهم ما أرادوه فقال لي الراضي حين دخلت إليه: هناك يا صولي قد أجلس جارك ابن المأمون خليفة، وميل بين الاثنين فاختاروا الكبير، والله لأطمعن الطير لحمهما، وذكي الحاجب يسمع ذلك وخدم قيام، فقلت: لا أحياني الله إلى أن أرى مكان سيدنا غيره، وما أبعد هذا يا سيدي في نفسي، أيصلح للخلافة من خاب سبعين سنة، ومع هذا فوالله ما يحسنان شيئًا ولا يفهمانه، فلما سمع قولي هذا ضحك منه، فلما ضحك انبسطت في الكلام، فقلت: أعداء هؤلاء كثير والتشنيع عليهم عظيم، ولعل هذا شنعه أعداؤهم عليهم. فرمى إلي بفصل من كتاب قد ذكر ما قاله فيه.

ودخل محمد بن حمدون ونحن في ذاك فأعاد عليه القول فسلك في الكلام طريقتي، وما زلنا نكلمه حتى سكن. وخرجت فقال لي ذكي الحاجب أحسن

الله جزاءك، هل ورد عليك كتاب بما قاله سيدنا؟ قلت: نعم. قال: وقد ورد علي مثله، فأعطاني كتابه ودفعت إليه كتابي فرمى بهما في دجلة. وجاءت الدراهم التي وعد بها الراضي، ففرقها ورحل نحو بغداد لا يلوي على شيء، حتى دخل بغداد لثمان خلون من شهر ربيع الآخر ولقي الناس شدة في الطريق، وغرق خلق من أصحاب بجكم من باب يعرف بباب الهاشمي. وكان الناس يقولون: نالتهم عقوبة بطلبهم أهل الموصل. وكان دخول الخليفة في الماء يوم السبت، حتى انتهى إلى داره ونزل بجكم دار مؤنس. وورد من الحسن بن عبد الله مال من مال المفارقة، حمل إلى خزانة بجكم.

وكان فيما خاطبني به الراضي في حجته من خروجه أن قال نظرت فإذا الدنيا لا تفي برزق جند بجكم ومئونتي، وأن هذه المستخلصة التي في يدي أحتاج أن أتمم منها مال أصحابه، فقلت نصير إلى الموصل وهي الناحية العامرة، وأكثرها ضياع آل حمدان فأقبضها كلها وأنفرد بأولئك وأجعلها لبجكم وأصحابه وهي كفاية وفاضلة عنهم، ويخلص لي مال ضياعي فأوسع على الناس منه وأعطي من حرمت، وأجعل في بيت المال شيئًا يرجع الناس إليه.

فقلت: له إن هذه الناحية إنما عمرت بعناية ابن حمدان بها، ونزولهم فيها، ولو قد صارت إلى غيرهم لعادت خرابًا كما عادت فارس بعد عمرو ابن الليث، وأصبهان ونواحيها بعد أبي دلف. ولما قدم الراضي بغداد أمر فنودي في جانبيها ببراءة الذمة من جندي تعدى على عامي، وكذلك إن تعدى عامي على جندي فسكن الناس، وورد كتاب الحسن بن عبد الله على بجكم يخبره بأن ابن طياب كاتبه أخذ من الأموال بالموصل نحو ألف ألف دينار سرًّا وجهرًا، فقبض بجكم على كاتبه علي بن خلف وعلى أخيه، واستكتب أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد.

وكانت لبجكم دعوة عظيمة دعي فيها القواد، وأوقد فيها نيرانًا عظيمة في يوم السبت لأيام بقين من شهر ربيع الآخر، وذلك في الصحراء التي أسفل النجمي على دكة كان بناها هناك، وميدان أصلحه، قطع فيه نخل الناس وأخذ أملاكهم وذلك في وقت كان الفرس يصنعون فيه مثل هذا لدخول بهمن ماه وذهاب الشتاء.

وخلع على ذكي الحاجب وعلى ابن ورقاء وعلى ابن جعفر الخياط وابن خاقان، ووصلهم وفعل بأصحابه مثل ذلك، وأنفق فيها مالًا عظيمًا وتكلم بجكم في أمر محمد بن القاسم الكرخي فظهر.

وقطع أبو جعفر بن شيرزاد أمر بني طياب على ألف ألف درهم. وقبض بجكم على لؤلؤ وكاتبه ابن سمعون وابن أعجى خليفته، كان على الشرطة، وقال له أتدخل بغداد بأعلام عليها لؤلؤ الرايقي؟ واتخذ بجكم دار ابن رايق ميدانًا يقصده في كل جمعة وثلاثاء. وسفروا في الصلح مع بني البريدي على أن ابن شيرزاد يسفر فيه فقدم كاتبه طازاد إلى واسط.

وضبط بشرى الأثرم الشرطة ضبطًا حسنًا، وماتت أم موسى الهاشمية في شهر ربيع الأول، ومات بجماعة من المحدثين منهم الأدمي المقرئ بحرف حمزة في جامع المدينة وكان زاهدًا. ومنهم علي بن العباس الهروي.

ثم كثر عبث العامة وكبسوا الحمامات، وأخذوا ثياب الناس وكذلك صنعوا جنازة وغلت الأسعار.

وولي أبو الحسين بن ميمون أزمة الدواوين، وأطلق البازعجي في غرة جمادى الأولى، ففورق عن مال يؤديه عن لؤلؤ.

ومات أبو محمد يزداد بن محمد بن يزداد الكاتب - وكان قد حدث عن أبي سعيد الأشج والزبير بن بكار - يوم النصف من جمادى الأولى.

وقبض الراضي على عبد الصمد بن المكتفي، وحمله إلى داره واتهمه بمكاتبة ابن رايق في البيعة له وقت ظهوره ببغداد.

واتصل النداء برضاء السلطان عن البريديين، ووردت الكتب بموت الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر يوم الأحد، لثمان ليل خلون من جمادى الأولى، وأنه دفن في دار له بالرملة، وخرج القاضي والترجمان إلى بني البريدي في جمادى الآخرة، ووقع بين يدي الراضي أملاك لأبي الحسن بن عبد الله بابنة لبجكم صغيرة، وأنفذ بجكم بعقب هذا هدية عظيمة الخطر فيها خمسون ثوبًا من فاخر الفرش والديباج، ومثلها من الخز عشرة مراكب على عشرة أفراس. وجاءت من الحسن هدية إلى بجكم تزيد على هذا، وعجل بجكم على رجل كان في داره من وجوه قواده فقتله ليلًا، ثم أصبح نادمًا مغمومًا وخبثت قلوب أصحابه لذلك، وورد الخبر بأن البريديين دخلوا الأهواز بحرب الديلم وهزيمة لهم.

وعاد القاضي والترجمان إلى بغداد، ونفذ راغب خادم الراضي بالخلع على أبي عبد الله البريدي للوزارة يوم الثلاثاء، لسبع خلون من رجب على أن يخلفه ببغداد أبو بكر النفري، وكان الكتاب نفذ إلى ابن أبي الفتح الوزير بأن يدبر ما كان يدبره أبوه بعد اسم الوزارة.

وورد الخبر بأن ابن رايق رجع إلى الرقة فقبض على خزائن لابن حنزابة فوصل إليه منها ما قيمته خمسمائة ألف دينار. وخلع على الترجمان، لعشر بقين من رجب لولاية الجبل، وخرج إلى مضربه بصحراء ثلاثة أبواب وعقد له لواء.

وسمعت راغبًا الخادم يقول إن أبا عبد الله البريدي امتنع من الوزارة وقال: لو سست بعض دواب الخليفة لشرفت بذلك، فكيف بكتبته! ولكني

بعيد عنه، ولا يحسن لي أثر عنده، لغلبة من قد غلب على الأمر، وأخاف أن ينسبني إلى عجز وتقصير. فإن أمنت هذا منه فأنا عبده يفعل بي ما شاء. فرجع إلى الراضي فأخبره بهذا من قوله. فرده إليه بأن يعذره، فلبس الخلع وركب فيها، ووصل راغبًا ومن معه بهال عظيم.

وقدم راغب فحدث الراضي بما جرى، وهو يدور في داره ونحن معه، فأقبل الراضي علينا كالآنف من طرحه الوزارة على من يشترط فيها! فقال لنا -وتكلم بأحسن كلام وأصوبه في معناه-: إن الوزارة قطعة من الخلافة، ووهنها وهن الخلافة، وكنت استكتبت الفضل بن جعفر، وكان كاتبًا من بيت كتبة، وكان نائبًا عني، فحسن أثره عندي في جميع ما فعله، ولم تنله مهنة من أصحاب بجكم تضع من الوزارة ومنه، فلما توفي نظرت إلى من بالحضرة فإذا هم من قد عرفت، وإن علقت هذا الاسم بواحد منهم لما مضى عليه أسبوع حتى يسأل مالًا يقدر عليه، ويمتهن كل الامتهان.

فنظرت إلى أرفع من أعلمه في الزمان ممن يسلم من هذا ويبعد عنه، فلم أجد غير ابن البريدي، فاستكتبته لهذه العلة، وليبقى اسم الوزارة على حال صيانة ورفعة فدعونا له وقلنا: والله يا سيدنا ما سمعنا كلامًا أوضح بيانًا، ولا أفلج حجة! وتتابعت هدايا الناس إلى الوزير ابن البريدي. ونالت بجكم علة صعبة، ووافت الأخبار بأن الديلمي وافي واسط، فنزل الجانب الشرقي، وأن البريديين عبروا إلى الجانب الغربي. وكتب يستنجد بجكم، فخرج الراضي وبجكم على علته نحو واسط يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان ولم يخرج بجكم معه أحدًا من الديالمة، خوفًا من أن يستأمنوا. ورجع الترجمان إلى بغداد، وأقام الراضي بالزعفرانية، ولحق به بجكم وهو عليل. وتعرض الحنبلية لمن قصد الحي للنصف من شعبان، فنودي فيهم: أنهم متى عرضوا لهم عوقبوا أشد معاقبة، فكفوا.

وكان ابن إسماعيل بن أحمد قد ولي شرطة بغداد قبل هذا الوقت بشهر وأيام، فركب ووقع بين الحنبلية والضرابين والنخاسين قتال فأعان على الحنبلية. ورجع السلطان إلى بغداد لليلتين بقيتا من شعبان، لم اتصل به أن الديلمي قد رجع إلى الأهواز. ورجع بجكم وابن شيرزاد إلى بغداد يوم السبت لثمان ليال خلون من شهر رمضان. ومات البخاري خليفة البربهاري في شهر رمضان. وكبست منازل ولد أبي العباس بن الفرات، لسعاية غلام لهم بأن عندهم خزانة لابن رايق، وكذب، كانت خزائن لهم، فأخذ جميع ما ملكوه. وكبس ابن الصالحي وأخوه؛ لأنهما اتهما بالسعاية في كتبة بجكم، فصودرا على مائة ألف درهم. وضرب بجكم دنانير وحشة، وحمل عليها حملًا كثيرًا.

وطلب ابن إسماعيل بن أحمد، صاحب شرطة بغداد البربهاري فاستتر. وقطع الأكراد على قافلة جاءت من خراسان في النصف من شوال، فأخذوا منها مالًا عظيمًا، وورد ابن حاتم والحاج من خراسان، فمنعهم بجكم من الحج خوفًا عليهم من القرامطة وكثر التخليط في أمر النقد ودار الضرب، وكان الدلاء صاحب البربهاري قد فر من الحبس في دار بجكم، فوجد وآل أمره إلى أن قتل.

ومات أبو الوليد بن حمدان في ذي القعدة، ثم احتال الحاج في أن خرجوا فجاءهم ابن سنين، فوافقهم على أن يخفرهم، وأخذ من جمل المتاع خمسة دنانير، ومن كل محمل ثلاثة دنانير، ومن كل زاملة دينارًا. وقبض بجكم على سلامة أخي نجاح في غرة ذي الحجة وقطع أمره على خمسين ألف دينار، أخذ منها بستانه بالبردان. وبنى مسجد براثا. وأفتى بعض الفقهاء بنبش القبور وتحويلها -التي كان البربهاري وأصحابه أخذوا الناس بالدفن فيه- وأُنفق عليه مال وصُلي بالناس فيه، وروى فيه جعفر الدقاق عن أبي خليفة حديثًا ما خلق الله له أصلًا.

وكان من أخبار الجلساء بعد رجوع الراضي من الموصل أنه أعاد النوبة كما كانت يومين يومين، أربعة وأربعة، وكان بنو المنجم لا يصلون، وكان أحمد بن يحيى المنجم يحضر كل يوم في نوبته فلا يصل، وفي نوبتنا فيصرف، وربما استحيا الراضي منه، فجلس معنا في نوبتنا، ثم امتدح الراضي بشعر وقال: أنا أريد أن أخدم سيدنا كل يوم، إلا يوم الثلاثاء والجمعة بلا نوبة، وقام فسأل هذا وقبل الأرض، فكان يجيء في كل يوم. فطالبنا الراضي بأن نفعل مثل فعله، فعرفناه أن هذا ما كان مثله قط، وأن الأجسام لا تثبت عليه، وخوفنا أحمد بن يحيى منه، وقلنا له لا ترسم رسمًا يعود ضرره على جماعتنا، فلم يقبل خوفًا من أن لا يصل متى تغير هذا.

وكنا نحضر فنجلس إلى السحر ثم ننصرف فلا يجلس حتى يعود، ويطالب بالأكل والشرب، فما كنا نجلس في مجلس لكثرة عللنا، وكان ذلك سبب فساد مزاج الراضي ونفس الله عنا بشهر رمضان في سنة سبع، فلما جاء شوال عدنا إلى ما كنا فيه، فاعتللت أنا أيامًا كثيرة، ولم يبق منا أحد إلا اعتل، واعتل أحمد بن يحيى علة طالت، ووقع البلاء به كما جناه، فتوفي رحمه الله في ذي القعدة. وأمر الراضي بأن يتصدق بألف دينار من الصراة إلى نهر عيسى لعوز الماء من أجل البثق. فقلت: أو يفعل سيدنا ما هو خير من هذا؟ قال: وما هو؟ قلت: نعم إن جرى على يد واحد من الناس. قال: ومن هو؟ قالت أخشى لومه، قال: قل. قلت: راغب الخادم، هو والله وثق الناس. ويغمه بعده عن الخدمة. فيروج العمل والعمال يرتزقون فيحبون أن يطول الأمر ليأخذوا أرزاقهم، وهذا لا يزيد رزقًا.

فدعاه وأمره أن يضم إلى الألف الدينار ألفي دينار ويخرج، فأطل يده على جميع الناس، فعرف راغب أن هذا من جهتي، فقال لي: أنت عرضتني لهذا؟ قلت: نعم. رأيت الأستاذ يغزو ويحج على غرر، وهذا أفضل من الغزو والحج

والجهاد بعد الفرض، فرضي عني وكان قد غضب. وخرج ففرغ من البثق بعد نيف وخمسين يومًا، وركب الراضي ونحن معه نتنزه بكرخايا، فأعد له القاضي بالصالحية ضيعته، فاكهة كثيرة، وطعامًا واسعًا، على أنه يتغدى فيها، فلم يمض إليها، وعاد إلى بستان ابن قرابة فتغدى فيه وانصرف من يومه ومعه بجكم، وعمل الجسر الفوقاني بمال أوصى به أبو الوليد من ثلثه، وأوصى بأن يعمل به الجسر.

سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة

أنكر بجكم على الترجمان دخوله بلا أمر ورجوع الديلم، فأظهر كتابًا عن تكينك يخبره بأن الأمير أمره بذلك، فكان ذلك مما أنكره الأمير على تكينك وما زال الترجمان ملازمًا بيته إلى أن رضي عنه بجكم ووافت الأخبار بمصالحة ابن طغج لابن رايق ووردت الخريطة بتمام الحج، إلا أن الحسني قطع على قوم منهم، وقد فصلوا من المدينة راجعين. وصلى بالناس عمر بن الحسن بن عبد العزيز. وكان صيغون قد طرده ابن رايق ولم يرده، فصار إلى الحسن بن عبد الله، فلم يرض حاله عنده، فصار إلى بغداد يريد بجكم فخرج بجكم إلى النجاحي حتى تلقاه وأقدمه معه.

وكانت ابنت الوزير ابن البريدي مسماة بابن أبي جعفر الكرخي، فزوجها من بجكم بحضرة الراضي، والخاطب القاضي، وابن شيرزاد الولي، وذلك في صفر. وكان ابن شنبوذ محبوسًا فمات فوجه به إلى منزله وقد كانوا حذروه في وقت ثم ردوه. وقتل العيار المعروف بالمسلماني وصلب، أخذه رجل يعرف بأبي الحسين التمودي فأمسكه وتكاثر العامة عليه.

وولي الترجمان الشرطة، فاستخلف أبا بكر النقيب وقبض بجكم على ابن إسماعيل بن أحمد في شهر ربيع الأول؛ لأنه واطأ جماعة على الفتك ببجكم بعد

أن كان دعاه قبل ذلك إلى منزله حيال قصر عيسى، وجميع قواده، وأنفق مالًا عظيمًا على الطعام والشراب والحملان للقواد والهدايا حملت مع بجكم وأفراس قيدت معه.

ومات أبو عبد الله بن العلاء الحوزجاني المحدث لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وكان مسندًا يروى عن أبي الأشعث ويوسف القطان وزيد بن أخزم الطائي. وصرف الحسن بن هارون عن الكوفة بأبي بكر البرجمالي. وحول بجكم الحبس السفلاني إلى دار دينار ليعقد هناك جسرًا، وبنى دكتين ولم يتم ذلك. وأخرج الراضي ابنيه إلى داره بالرصافة ليركبا إليه، وبنى لهما طيارين كبيرين. واشتد أمر اللصوص وكبسهم الدور ليلًا، بالعدة والعدد، وظفر بجماعة منهم فقتلوا وصلبوا. وصرف لؤلؤ عن طريق الكوفة، وولي مكانه عدل حاجب بجكم. وكان ابن شيرزاد قد خرج إلى واسط في استحثاث المال فقدم لثمان ليال بقين من ربيع الأول ومعه السكري صاحب أبي الحسين البريدي بمال وهدايا.

واتصلت الأمطار وزادت دجلة زيادة عظيمة لم يعهد مثلها. وأوقد بجكم بالزبيدية نارًا عظيمة ليلة وبعض يوم، وشرب ودعا القواد، وتحدث الناس بأن السكري صار إلى دار البريديين التي خربت بسوق يحيى، فحفر موضعًا منها، فاستخرج خمسة قماقم فيها دنانير فحدرها معه. وكتب أبو القاسم بن أبي حامد رقعة إلى بجكم تضمن فيها الخليفة وابن سنكلا وجماعة بخمسة آلاف ألف دينار بخطه، فأمر الراضي بضرب عنقه، فشهد له القاضي بفساد العقل، فضرب دررًا، وطيف به على جانب بغداد.

وأدخل يالبا لعشر بقين من جمادى الأولى على فانج بنقنق؛ لأنه اتهم بمشايعة ابن إسماعيل على الفتك ببجكم، وكان سبب أخذه أنه كتب -وكان يلي الرحبة- أن ابن رايق يريده فكتب إليه: أنا موجه إليك بمدد، فوجه بعدل.

فقبض عليه، وكبس الصقر بن محمد الكاتب، وطولب بوديعة لبعض القرامطة، فحلف على بطلان ذلك، فسعى رجل بمال له مدفون في داره فأخذ، وكان عشرة آلاف دينار ذخرًا له ولولده، فجرى عليه ظلم رثى له منه عدوه وصديقه. وأحضر بجكم يالبا فوبخه وقتله. وتوفي أبو سعيد الاصطخري الفقيه يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، ودفن بمقابر الدير، كان رأسًا في حفظ مذهب الشافعي، وحدَّث، وكان ثقة.

وتوفي بعد يومين أبو الفرج بن جعفر بن حفص الكاتب عن سبعين سنة، وكان من أهل بيت كتبة. وأخرج بجكم الترجمان إلى الجبل ومعه جيش عظيم لأربع خلون من رجب، واتصلت مصادرة الناس فصودر ورثة أبي جعفر بن حفص على ثلاثة آلاف دينار.

ومات أبو الحسين بن المغيرة الجوهري لتسع بقين من رجب، وقد حدَّث، وكان ثقة. وأدخل جعفر بن ورقاء مائة نفس ونيفًا من القرامطة من بني سعد من طريق خراسان، فطيف بهم على جمال وحبسوا، وقدم رسول القرمطي مع عمر بن يحيى العلوي يطالب بمال عظيم كان أعطاه مثله البريدي في العام الماضي حتى يحج بالناس، وأن يده لا تنال في هذا العام.

ووجه بجكم إلى أبي الحسن الكرخي وأبي عمرو الطبري، فحضرا عنده في ليلة جمعة، فسألهما مسألة في النبيذ وغير ذلك.

وتوفي القاضي عمر بن محمد ليلة الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، وكانت سنه تسعًا وثلاثين سنة، وبلغ في العلوم مبلغًا عظيمًا مع هذا السن، وكنت أنا كالمربي له، ولا أشك أنه قرأ علي من كتب اللغة والأخبار، وكتبني المصنفة ما يقارب عشرة آلاف ورقة، وكانت له أشعار ملاح وجوابات مني قد أفردت لذلك كتابًا فيه هذه الأشعار، وفيه رسالة عملتها في وصفه

ووصف أبيه، وما تخلف عن جنازته أحد من الأجلاء، ووجد الراضي عليه وجدًا شديدًا، حتى كان يبكي عليه بحضرتنا، ويصفه ويقول: كنت أضيق بالشيء ذرعًا حتى أراه فيوسعه لي برأي يسير يشير به. وكنا ليلة بين يديه وستارته تغني فأمرهن بأن يضربن بالعيدان ففعلن. وجعل يبكي حتى خفنا عليه، وجعلنا نعزيه ونقول ما يجب أن يقال مثله. فقال: والله لا بقيت بعده. وصلى عليه ابنه أبو نصر في داره وغسله أبو بكر بن عبد العزيز الهاشمي.

وولى الراضي ابنيه أبا نصر وأبا محمد وخلع عليهما، فمرا في الشارع فجعل إلى أبي نصر قضاء بغداد إلى المداين، وولى أبا محمد القضاء من المداين إلى البصرة، وصار أبو نصر إلى مسجد الجانب الشرقي في يوم الثلاثاء لليلة بقيت من شعبان فقرأ عهده، وحكم بين نفسين وانصرف وكان فيما كلم به الراضي حين ولاه: قد استوفى سيدنا الأنعام وكمله وشيد بآخره أوله، فثبت الله وطأته، وأدام دولته. وأريد من أبي نصر مال لبجكم فغرم وباع، ووقف على الغدول والأمناء حتى أدى.

وكان النوروز يقع ليومين من شهر رمضان فقدم الخاصة إشعال النار قبل دخول رمضان، وأشعل العامة وصبوا الماء. وعزل غانم بن رحمة عن الشرقية للنصف من شهر رمضان، وصودر على مال. وقلد رجل يعرف بفضل فاضطرب الناس وعجبوا لذلك، فعزل وولي رجل يعرف بالقابوس. وحمل مع رسول القرمطي مال ليحج الناس.

واتصل ببجكم رجوع الديلم، وأن الترجمان لما بلغه ذلك أقبل يريد حلوان، فخرج مبادرًا لإحدى عشرة بقيت من شهر رمضان، حتى لحق بالترجمان، وقيل له: إن بينه وبين الديالمة عقبة إن أخذوا مواضع منها لم يصل إليهم، وإنه يحتاج أن يأخذ في طريق بعيد حتى تتم له الحيلة، فوافى بغداد على الجمازات لخمس خلون من شعبان؛ لأنه اتصل به أن الراضي عليل، وكان

اعتل في هذا الوقت حتى طرح من فيه في يومين وليلتين من الدم أربعة عشر رطلًا، وشاهدنا بعض ذلك، وركب يوم الفطر إلى المصلى تكينك وأبو بكر النقيب، وانقطع الدم عن الراضي وصلح قليلًا. وأخرج ابن مقلة ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال ميتًا من دار السلطان، فدفن عند باب الفيل، فسأل أهله فيه، فنبش ليلة الجمعة للنصف من شوال وسلم إلى أهله فدفنوه في مقابرهم.

وكان الراضي يقول لنا بالموصل أيام ظهور ابن رايق ببغداد: لو كان ذلك الفاعل حيًّا الساعة لأجلس خليفة، ولأخذ أموال التجار، فالحمد لله الذي حدث هذا وليس هو في الدنيا -يردد هذا مرات؛ لئلا نعلم أنه حي في يده، وكذا كان يقول في أمر القاهر، وحدثنا كيف عذب وكيف مات- حتى وجد حيًّا بعد وفاته، وكثرت الرفايغ إلى بجكم من ظلم أصحابه للناس، فجلس للمظالم يوم الخميس لتسع بقين من شوال وبين يديه ابن شيرزاد فحمد في جميع ما أمر به ونهى عنه.

وورد الخبر بهزيمة ابن طغج لابن رايق حتى صار إلى دمشق. ومات أبو عبد الله المطيعي يوم الأربعاء لأربع بقين من شوال، ومولده سنة ثلاث وثلاثين، وكان مسندًا ثقة. ومات أبو العباس الخصيبي لليلة بقيت من شوال فجأة بلا علة. وجلس بجكم للمظالم لليلتين بقيتا من شوال، ونظر في ثلاثين رقعة، فجرى أمره فيها على سداد. ورجع رسول القرمطي بهدايا لبجكم، فيها فرسان لم ير مثلهما، ووفاه بجكم ما في ماله، وأهدى له هدايا. وخرج الحاج فلحقهم عطش، ثم أغاثهم الله بمطر عاشوا به.

واستبطأ السلطان ابن البريدي في حمل المال وعزم بجكم على الانحدار، فقالوا: كيف تقاتل من له اسم الوزارة؟! واستحضر سليمان بن الحسن للوزارة، وخلع عليه يوم السبت لثمان بقين من ذي القعدة، ومر في الشارع

وهنأه الناس. وخرج بجكم يريد واسط، فوجه بأربعة فيهم رفيق يالبا فطرحوا للسباع في البركة التي بناها بالنجمى، وقبض على ابن عبدوس بسبب غلام له يقال له بديع، كان في جملة البريدي، وعلى أبي الحسن بن سهل لمصاهرته لهم. وكاتب ابن شيرزاد البريدي بالخروج عن واسط، وأشار عليه ألا يحارب ففعل، ودخلها بجكم فخلع على ابن شيرزاد خلعة حسنة، وقلده سيفين، وسر أهل واسط ببجكم، وحذر حرمه إليه. ومات أبو بكر بن الأنباري يوم الأضحى ودفن في داره.

ودخل الترجمان ولؤلؤ غلام التهشم من طريق الجبل، إلى بغداد يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة. وظهر أبو عبد الله الكوفي. وانحدر إلى واسط لسبع ليال بقين من ذي الحجة، ووافى واسط من المستأمنة من عسكر البريدي ابن صفراء، فقلد يسكن وقطربل، ووافى حجرية، فأنفذوا إلى بغداد وقتل بجكم ابن الشابشتي الكاتب، وجد معه كتاب إلى أبي طاهر القاضي فانحدر أبو طاهر، وحلف أنه لا يعرف للكتاب سببًا وتكلم فيه فنجا، وهو أهل ذلك لعلمه وفضله.

واستوحش أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي من القاضي أبي نصر، وأشهد على نفسه ثلاثين عدلًا أنه لا يشهد عنده أبدًا، وكان انحرافه عنه أنه اتهمه بميل إلى أخيه أبي محمد، وأنه يسعى له في ولاية بغداد. وأخذ ابن أبي موسى خطوط العدول بتقريظه وتعديله، ولعهدي بأبي عبد الله بن أبي موسى وهو مجتهد ليله ونهاره، في أمر أبي نصر حتى تم له ما أراد، ما أعرته شهادة بذلك؛ ولكني عرفته مشاهدة ثم إن أبا نصر أحضر العدول فأخذ خطوطهم بأن ابن أبي موسى غير موضع للشهادة وأسقطه.

وقبض على محمد بن القاسم بن سيما؛ بسبب أن ابن أخته مع البريديين فتكلم فيه وقيل: والله ما ابن أخته بقائد ولا محارب ولا كاتب، وإنما هو

كالمضحك، ومثل هذا لا يؤخذ أحد به، فخلى، وانحدر أبو محمد بن عمر بن محمد إلى واسط.

واستحضر بجكم يحيى بن سعيد السوسي فأنفذه إلى السلطان يسأله إسعافه بمائتي ألف دينار فوصل ومعه جماعة من الكتاب فأمرهم الراضي أن يعملوا له عملًا من ضياعه المستخلصة بواسط ونواحيها بهذا المقدار ليأخذ ما فيها من غلة، فكان الأمر قريبًا فأطلق الراضي ذلك له.

سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

دخل أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد بغداد يوم الأحد لستّ خلون من المحرم مقبلًا من واسط واستكتب أبا عبد الله الكوفي واستخلفه، ووافى قوم من الموسم فأخبروا بتمام الحج وسلامة الناس.

وخلع على أبي محمد بن أبي الحسن القاضي، لقضاء المدينة لعشر خلون من المحرم، وكان ابن أبي موسى السبب في ذلك وغرم من ماله أربعة آلاف دينار أو نحوها، وهذا والله يدل على علو همته. وانحدر ابن شيرزاد إلى واسط، وكان جاء ليشير بانحدار السلطان فوعد بذلك.

ومات زيرك الخصي غلام القاهر فدفن في دار اشتريت له بالرصافة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم، وكان أحسن الناس خدمة للراضي، وكان له موقع عظيم منه، وأقطعه أقطاعًا؛ منه البستان المعروف بالشقيعي، وأعطاه من المال والطيب والجوهر بمقدار موضعه منه، فاغتم عليه غمًّا عظيمًا. فصاعد الخليفة إلى باب الشماسية، فسكن دارًا اشتراها ابن شنكلا من ورثة اصطفى، وركب فطاف كالمتفرج من الغم الذي ناله، وكان يقول: مات في مائة يوم قاضي وصاحب رأيي وخادمي الكافي خدمتي، وأمر فصب في دجلة أربعمائة دن للشراب العتيق الذي بقي من أيام المعتضد والمكتفي وكان

لا يشرب إلا منه، فحرص أبو الحسن بن أبي عمرو الشرابي على ألا يفعل ذلك -وكان مكينًا عنده قريبًا من قلبه، لطيف المحل يحضر في كل وقت، كنا أو لم نكن، وربما شاوره وخلا به، وإنه لموضع لذلك عندي- فما قبل ذلك منه، وندم بعد ذلك على صبها.

وما كان والله الراضي ممن يذهب عليه هذا؛ ولكن اضطرب رأيه،وكثر ضجره؛ لفساد مزاجه، وكثرة علله، فكان سنان بن ثابت - وكان قد لزمه، حتى جالسه معنا، وأكل وشرب بين يديه في آخر أيامه - يقول لي إذا رأي أخلاقه متغيرة، ما أحسن قول جالينوس: مزاج الروح تابع لمزاج البدن، وأنا أفرد لهذا بابًا إن شاء الله.

وقدم بجكم أبا بكر النقيب إلى الراضي ليخبره بما عزم عليه، ويعفيه من الخروج إليه، فقدم فدخل إلى الراضي ليلة الاثنين، وانحدر الراضي يوم الاثنين لتسع بقين من المحرم إلى داره.

وجمع بجكم الكتاب ليعملوا أعمالًا للأموال في النواحي، وكانت حيلة منه، فلما اجتمعوا قبض على ابن شيرزاد وعياله، وقبض النقيب يوم الاثنين بحيلة على طازاد وأبي الحسن أخي أبي جعفر وأسبابهما وعلى علي بن هارون الجهبذ اليهودي، وكان القبض بواسط وبغداد في وقت واحد.

ودخل الكوفي بغداد غرة صفر للنظر في الأموال، وهو كاتب بجكم، وصودر ابن شيرزاد عن نفسه وكتابه وعماله على مائة ألف وخمسين ألف دينار فتسلم ابن سنكلا طازاد، وضمن ما عليه وهو خمسة آلاف دينار. وصودر ابن المشرف وابن أخيه ثابت على نيف وعشرين ألف دينار، وعني ابن سنكلا وعلي بن يعقوب بطازاد بالبصرانية، وعرض هذا على بجكم فكرهه وأثقله، وزاد على ابن شيرزاد مائة ألف دينار.

وقبض على أبي بكر الصيرفي صاحب الجيش، وعلى أبي أيوب السمسار وأخذ منهما عشرة آلاف دينار، ولم يؤخذ لابن الصيرفي مال، وشهد الناس بثقته فأطلق، وقبض على جعفر بن ورقاء لأيام خلت من صفر فلم يترك له عين ولا ورق ولا دابة ولا مركب ولا فرش ولا آلة إلا بيع في مصادرته، على أنه يعول مائتي نفس وله معروف وكرم. وأنكر الترجمان على ابن خشيش المحتسب حيلة على جارية في دار ابن بنان الخلال حتى أخذ حليًا وثيابًا، وذاك أنه دس من استعار منهم بيتًا وجعل فيه آلات لضرب الدراهم المعمولة، ثم كبسه فضربه وأطافه على جمل من الجانبين، وكانت قصته فيما فعل قبيحة جدًا.

وكتب الكوفي على ابن شيرزاد صكاكًا بأملاكه لبجكم، فتسلم ما كان بالقرب منها. وأخذ من علي بن هارون اليهودي بعد عذاب عظيم مائة ألف وعشرة آلاف دينار، ثم قتله بجكم بعد ذلك بمديدة، واجتمع للكوفي مال فأنفذه إلى واسط مع الترجمان من المصادرة وغيرها، قيل إنه أربعمائة ألف دينار. وجاءت بنو تميم لكبس الأنبار، فرجع الترجمان إليهم من واسط ففارقهم على أن يثبته لمحاربة البريدي. وقلد لؤلؤ طريق خراسان مكان ابن ورقاء وخلع عليه لثلاث خلون من شهر ربيع الأول، وطالب الكوفي الحسن ابن عبد العزيز بنحو مائتي كر بلغه أنه نقلها قبل مواقفة العامل وباعها، فقاطعه عنها على خمسة آلاف دينار وعزله عن الصلاة وولى مكانه أحمد ابن الفضل بن عبد الملك، وكان حقد عليه أنه أسمعه في أيام ابن رايق وقال له أنت ابن ذكرويه.

انقضت الحوادث إلى غرة ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

وفيه توفي الراضي بالله وأنا أذكر وفاته بعد إتمامي وأذكر مختار شعره. كان الراضي في آخر أيامه قد تغيرت أخلاقه وأفعاله التي ما كان أحد على مثلها في فضله وعقله وكرمه وأدبه، وما اتهم في ذلك إلا ما قاله لي سنان من علته،

وكان قد تغير لجميع الجلساء حتى ساوى بنا من لم يكن يساوينا عنده، وزاد الأمر حتى فضلهم علينا. وخص عبثه بإسحاق بن المعتمد وب،ي إلا أن إسحاقًا لثقل سمعه كان لا يسمع أكثر ما يمر، وكنت أنا أسمع ويكثر الخطاب ل،ي وكنت أحتمل ضرورة، ولما أوجبه الله علي وربما أطلعت حجة تغيظه إذا زاد الأمر علي فيغضي عنها لكرمه، لولا أنه كان أحسن الناس وفاء وأتمهم حلمًا وكرمًا لظننت أنه سيمنعني من الوصول إليه، وكان يمدحني إذا غبتُ، ولا يفعل ذلك إذا حضرت، ولقد حدثني بعض الخدم أن أحمد بن يحيى المنجم ثلبني يومًا عنده، فقال له: أمسك عن هذا ولا تنظر إلى ما أفعله فإني أريد بما أجري إليه إصلاحه لي كم أريد. فقال له: فلو قومه سيدي بحجته عنه أيامًا؟ فقال: قد هممت بذلك فخفت أن ينسبني الناس إلى قلة وفاء لقدر خدمته لي، ولأنه حبب إلي الأدب، وسنى لي قول الشعر، وعرفني نقده وتعب معي فيه. ومع ذلك فيقال: إذا حجب مثل الصولي فماله رغبة في الأدب، حدثني بذلك بعض الخدم، قال: فما سمعناه يعيد ذكره عنده.

وكان يقول لي أبو الحسن بن أبي عمرو الشرابي لا يغمنك ما يجري، فلا والله ما عن كراهة ولا بغض؛ ولكنه من عبث الملوك بمن يحبون من عبيدهم وخدمهم، وكان أبو الحسن البريدي يقول لي مثل هذا ويقول لي العروضي، وما بان لي أن أحدًا كان آثر عنده مه. وكان إذا أراد عرض كتاب يسره أو غير ذلك أدخلنا جميعًا حتى يفرغ مما يريد ثم يدخل الباقين، على أنه ما سلم أحد منهم في عبثه، غير أني كنت مخصوصًا بذلك في حضوري، ولقد ذكر يومًا بعض مشايخ أهل البيت من ولد الحسن عليه السلام فشتمه فنظر بعض أصحابنا إلى بعض ثم ضحكوا وقمنا، فرجعت فقلت: يا سيدي يمسني ما لا يمس أحد مثله، وهؤلاء إن ضحكوا بين يديك فإنهم يضمرون ويحكون، ويحفظون الذي ذكره سيدنا أمه فلانة بنت فلان، وأبوه فلان بن فلان. فقال:

استغفر الله وقد أحسنت.

وكان أول تغيره أنه كان يعيب غناء ابن طرخان ويحكيه ويذمه ويحلف أنه لا يحسن شيئًا، وإن ذودة الزطى الطنبوري أحسن غناء منه ويدخل ذودة بحضرتنا وغير حضرتنا ويصله، فلم يزل به إلى أن أحضر ابن طرخان وغلب عليه واستحسن غناءه، حتى صار يجلسه بين أيدينا ويصل بصلات ويخصه بها، ويلقى على ستارته الأصوات التي يستحسنها، ثم زاد الأمر حتى وصل الجلساء ليلة الفطر ولم يصلني ولا وصل إسحاق؛ فأما إسحاق فألقى نفسه على راغب وبكى، حتى أمر له بنصف ما أمر لكل واحد ممن وصله، وأما أنا فأمسكت، وشرب بعد ذلك فوهب لجميعهم معرقة معرقة، إلا لي وللبريديين، وكان يجفوهما كثيرًا، ووهب لهم قدحًا قدحًا من البللور ولم يهب لي مثلهم، ووعدني أن أنسخ له أشياء ويصلني لها كعادته، وكان لا يعجبه أن لا ينظر في شيء إلا بخطى، فلما تغيبت وفرغت منه لم يعطني شيئًا، فعملت شعرًا ودخلت في صبيحة الليلة التي أمر لهم فيها بما أمر مع الغداة فأنشدته:

قُـلْ لِلْخَلِيفَـةِ تِـرْبِ الْعِلْـمِ والأدَبِ ... وأَفْضَلِ النَّاسِ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ

ومَـنْ أَجَـلَّ إلـهُ النَّـاسِ رُتْبَتَـهُ ... حتَّـى عـلاَ وهَـوَى الأمـلاكُ في صَبَبِ

قَـدْ كـان لِي مَوْعِـدٌ في النَّسْخِ لَمْ أَرَهُ ... وفـاتَنِي القَـدَحُ المُحْفُـوفُ بِـالطَّرَبِ

وحـازَ صَـحْبِي دُنِي طِيـبَ مَعرِقَـةٍ ... لِباسُـها أَفْخَـرُ الأنْـسابِ والحَـسَبِ

ولَيْلَـةُ الفِطْـرِ أَبْقَـتْ لِي حزازَتُهـا ... نـارًا تَرامـى عَـلَى الأحـشاءِ باللَّهَـبِ

فَجـازَنِي بِـرُّ مَـوْلًى كـان يَبْـدَأُنِي ... كـأَنَّنِي نـاقِصٌ فِي رُتْبَـةِ الأدَبِ

أَلَمَّ بِي طَيْـفُ حِرْمَـانٍ فَـأَرَّقَنِي ... فَبِـتُّ مُعْتَنِقًـا لِلْهَـمِّ والكُـرَبِ

هـذَا عَـلى خِدمَـةٍ مَـا ذُمَّ سـالِفُهَا ... ودَوْلَـةٍ لِي فِيهـا أَوْكَـدُ السَّبَبِ

وأنّنا نُقبلُ شاعَ نَصْرُهُمُ ... نُلْقِي أعادِيكُمُ في الحَرْبِ بالحَرَبِ

ويَوْمَ مَرْوانَ أُفرِدْنا بِمَشْهَدِهِ ... والفَخْرِ فِيهِ بِنَصْرِ السَّادَةِ النُّجُبِ

مقالَةٌ تُوردُ الأخبارُ صِحَّتَها ... مَوْجُودَةٌ في رِواياتٍ وفي كُتُبِ

إن كانَ ذلِكَ مَزْحًا مِنْ إمامِ هدىً ... فَحَبَّذا هُوَ مِنْ مَزْحٍ وَمِنْ لَعِبِ

وَسَوْفَ يأْتِي سَرِيعًا مِنْهُ لِي عِوَضٌ ... كَسَا أَتاهُمْ بِلا كَدٌّ وَلا تَعَبِ

فَالْعَيْشُ إن كانَ هذا عَنْ خَبِيٍّ رِضًا ... والمَوْتُ إن كانَ كُلُّ المَوْتِ عَنْ غَضَبِ

رَأَيْتُ وَجْهَ الرِّضا أَعْلَى لطَالِبِهِ ... مِنَ الصَّلاتِ إذَا تُوبِعْنَ وَالرُّتَبِ

لا تَجْعَلَنِّي نَهْبًا لِلْهُمُومِ فَقَدْ ... تَرَدَّدَ الظَّنُّ بَيْنَ الرَّغْبِ والرَّهَبِ

أَقُولُ قَوْلَ امْرِئٍ صَحَّتْ قَرِيحَتُهَا ... ما زَالَ فِي الدَّهْرِ ذا كَدْحٍ وذَا دَأَبِ

سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الآدَابَ في عُصَبٍ ... حَظًّا وصَيَّرَها غَيْظًا عَلَى عُصَبِ

ومِثْلُ شَكْوَى حَكِيمٍ عَضَّهُ زَمَنٌ ... كما اشْتَكَى غَارِبٌ مِنْ عَضَّةِ القِتَبِ

أَفْضِلْ عِنانَكَ لا تَجْمَحْ بِهِ طلَبًا ... فلا وعَيْشِكَ ما الأرْزاقُ بِالطَّلَبِ

قَدْ يُرْزَقُ المَرْءُ لَمْ تَتْعَبْ رَواحِلُهُ ... ويُحْرَمُ الرِّزْقَ مَنْ لَمْ يُؤْتَ مِنْ تَعَبِ

مَا أَصْعَبَ الفَقْدَ لِلْعَادَاتِ مِنْ مَلِكٍ ... تَقْدِيمُهُ فِي الْعَطَايَا أَشْرَفُ الرُّتَبِ

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ صَبْرًا عَنْ مَحاسِنِهِ ... ونَشْرِهَا فِي الْوَرَى أَمْعَنْتُ فِي الهَرَبِ

ما لِي إذا لَمْ أَفُزْ مِنْهُ بِمَنْزِلَةٍ ... وَعَوْدِهِ بِالرِّضَا في الْعَيْشِ مِنْ أَرَبِ

إنِّي لأَمْلُ مِنْهُ حُسْنَ عَطْفَتِهِ ... فالحَظُّ مُقْتَسِمٌ وَالدَّهْرُ ذُو عُقَبِ

حَتَّى يُبَيِّضَ وَجْهِي مُذْهِبًا حَزَنِي ... بِالبَذْلِ لِلْفِضَّةِ الْبَيْضاء والذَّهَبِ

كعادَةِ الدَّهْرِ فِي تَقْدِيمِهِ أبَدًا ... رَضَعْتُ مِنْهُ بَدَرٌّ طَيِّبِ الحَلَبِ

فَقَدْ سَبَقْتُ بِمَدْحٍ فِيهِ فُزْتُ بِهِ ... صِدْقٍ إِذَا مُدِحَ الأَمْلاكُ بِالْكَذِبِ
فَاسْمَعْ لِمَدْحٍ يَلَذُّ السَّمْعَ مُنْشِدُهُ ... لا تَجْعَلِ الرَّأْسَ فِي الأَشْعَارِ كَالذَّنَبِ
مُشَبَّهٌ لَفْظُهُ فِي حُسْنِ مَذْهَبِهِ ... بِلَفْظِ شِعْرٍ بِنَارِ الْحُسْنِ مُلْتَهِبِ
يَا مَنْ يُحَمِّلُ ذَنَبَ الرَّاحِ شَارِبَهَا ... أَقْبِلْ بِوَجْهِ الرِّضَا فِي سَاعَةِ الغَضَبِ
لا وَالَّذِي أَنْتَ مِنْهُ نِعْمَةٌ مَلأَتْ ... عُرْضَ البِلادِ وَحَلَّتْ حَبْوَةَ النُّوَبِ
مَا فِي عَبِيدِكَ إِنْ فَتَّشْتَ أَمْرَهُمُ ... أَقَلُّ مِنِّيَ فِي رِزْقِي وَفِي نَشَبِي

يا من يحمل ذنب الراح، هو بيت له من أبيات كانت تعجبه، فضمنت أنا هذا البيت ومدحته على وزن الأبيات وقافيتها.

ومن ذلك ما ظهر منه في آخر أيامه عند موت زيرك القاهري، ثم عرف حالة ما خلف، فقال: ارفعوه إلى فلان يتصدق به، فلما رأى فلان ذلك هاله واستعظمه، فوجه إليه ما أحسن أن أمس شيئًا من هذا دون أن تراه، فوجه إليه أنا أعلم به منك، فبعه وتصدق بثمنه. فوجه إليه: هذا ليس لمثله مشترٍ إلا أمير المؤمنين أو الملوك من عبيده، فقال: بعه وتصدق بثمنه عنه ولا تراجعني. فقال لي بعض الجلساء -وقد حدثنا الخدم بهذا-: أتراه يأمل اجتماعًا معه في الآخرة حتى يخدمه! فقلت: له حسبك من الكلام في هذا. فقال: والله ما تكلمت حتى أَبْلُغَ مُنَى وزعم الخدم أنه خلف عينًا وورقًا وطيبًا وجواهر وبللورًا وثيابًا ودواب وسروجًا ومناطقَ بقيمة مائة وخمسين ألف دينار، فما أخذ منها إلى العين والورق وكانا أقله.